مقدمة

للأستاذ سيف النصر محمد عشرى

من رجال التعليم

بسم الله الرحمن الرحيم

يعرض لكثير من تلاميذ أستاذنا الجليل سيدى إبراهيم سلامة شيخ الطريقة الحامدية الشاذلية بعض آى الذكر الحكيم ، ومتفرقات من السنة المطهرة ، ومأثورات عن أعلام الصوفية ، وأصحاب النظر من أسناد التشريع والتحقيق ، فيستوقف تفكيرهم فيها لمحاتٌ خفيّات وراء النظرة العَجْلَى ، والنص الظاهر ، ومُتَوَارِيَاتٌ لم يتسع لها خاطرهم فى اجتلاء غوامضها ، وما ترمى إليه من دقائق المعنى ، وشواهد اللفظ ؛ فيكِدُّونَ عقولهم فى تتبُّع مَسِيرتها ، وتفهّم أغراضها المطويّة فى قوالبها المقروءة والمسموعة عساهم يَثْقَفُونَ من وراء تفكيرهم ، ومُسْتويات استعدادهم جديداً يرضونه ، وطريفاً يستريحون إليه .

والشيخ ـ عَمَّرَ الله أيامه ، وأطال حياته بينهم ـ يُدِير دفّة المناقشة ،

ويمهّد لهم أصول الأخذ فيها . فَيَتَيَامَنُ بهم فى متاهاتها ويتيامَر ، ويُشَرِّق بهم فى اتجاهاتها وَيُغَرِّب إلى أن ينف بهم على الجُودِىِّ الآمن والرأى الصائب ؛ يفتح عليهم باب القول وينكّ لهم حِصَار اللفظ حتى إذا أخذوا فى النقاش شيئاً فتح لهم باباً آخر مطمئنّ المصراعين ، مأمون المدخل يُدْنى لهم فيه شَوَارِدَ الحقائق ، ويقيّد لهم حقائق الشوارد فى أَبْجَدِيَّات أولية ميسورة يصل من خطوطها المستقيمة إلى ذروة الحكمة واضحة المعالم متبلّجة الصباح

ولما كان للأحباب تطلعاتهم إلى رشفات من هذا البحر المائج ، والمحيط المنبسط الزاخر يَرْوُون بها ظمأهم ، ويَنْقَعُون فيها غُلّتهم ، دعاهم حرصهم على ألاّ تمرّ علوم الشيخ وفيوضاتُه هكذا عَبْرَ الهواء ، وعلى أطراف السّماع من غير أن يصاحبوها وِرْدًا ويراجعوها صَدْرًا ، وهى الجديرة فى خُصُوبة معانيها ، وَذَهَبِىِّ مبانيها بالمُعَاوَدَة والمدارسة ، فتعيّن عليهم أن يتقدّموا إلى الشيخ ـ رضى الله عنه ـ فى أن يُوَطِّىء لهم كتاباً يُتيح لهم فيه بعض ما أطرفهم به من أسرار الكلام وعيونِ الحكمة تلك التى طالما هزت شعورهم فى نَشْوَةٍ ، وجذبت وَعْيهم فى إقبال ، فتفضل ـ أكرمه الله ـ وأبَى مطلبهم كعادته فى بسط يده بالمعرفة للساعى إليها ، وإشباع رغبة المشوق إليها ، وتناول هذه اللمحات التى غَطّتْ سماء حلقاته أَرَجًا وَرِيًّا ، وتضوعت فى دوائرها

نسيماً زَكِيّاً فى مجالِسَ عاليـةِ المدّ حلوةِ المستمَعِ ، فبوّبها أبواباً ، وفصّلها فصولا فى هذا الـكتاب .

والـكتاب روضةٌ وارفةُ الظل ، ممتـدة الأغصان فيها من كل فاكهة زوجان تَرِفّ عليها نَسَائِمُ الصَّبَا ، وتغرّد فى أفيائها طيور الشروق ، يجد فيها العانى مَشْفاه ، والظامىء مسقاه ، والضال مهتداه ، وهو فوق ذلك مَوْسوعة علمية وكنوز تشريعية ، وطاقات تحقيقية ، وتعبيرات تتخذ من سطحيَّة ألفاظها ، بواطن أهدافها ، ومن ظاهر مبانيها جلائل معانيها ، وقرب القاصى منها إلى بديهة عقول القارئين ، وطرَق لهم ما أشـكل من عويص مفهومها ، والتواء سبيلها طريقاً سويّاً فى مهارة ودقّة كبيرتين .

وإنك لَتَسْبَح بين جوانب الـكتاب ، وتغوص فى أعماقه إذ تطالعك هذه المَلْحَمَةُ الـكلامية المحتَدِمةُ بين طوائف الفرق الإسلامية كل يؤيد رأيه بمطلق النص أو مُقَيَّده ، أو يدْعمه بمتشابه الحُـكْمِ أو مُحْـكَمِهِ ، حتى إذا ارتفعت حُمّى الخصومة ، واشتدّ أُوارها ، واختلط الحَابِلُ بالنَّابِل ، تدخّل بينهم الشيخ ـ فقهه الله ـ فَمَسّ بعضهم مَسًّا خفيفاً فى أسلوب مهذب وإقناع ملزم لا لَغْو فيه ولا تأثيم إلى أن يُلْـقِيَ عصـاه بجوار أهل السنة والجماعة من سـلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ فيقوّى حجتهم ، ويشدّ أَزْرَهُمْ بدلائل جديدة

ربما لم تمرّ على بال ، فهو لم يَكْتَفِ بأن يأخذ النص بظاهره ، ويتوقف عند سطوره كما يحلو لبعض السَّطْحيين ، بل يستنبط منه رائعَ مَعْنًى ضاق به اللفظ ، معنًى يعطى للقلب إشراقةً ، وللروح طاقةً ، ويبدل النُزعة المتمرّدة فى جوانب النفس إلى نزعة خيّرة تفيض بالبر والإحسان للناس أجمعين .

وربما عَثَرْتَ على الكثير بين دفّتَى هذا الكتاب من نصائح موجّهة ، ومواعظ هادفة تجلو الرّين ، وتذيب الصَّدأ ، وتقلع أظافر الشيطان .

ولما كان لرجال السلوك ملكاتٌ خاصة ، وملاحظُ تتمشّى مع أذواقهم فى تفهّم المعانى وحلّ طلاسمها على نحو معين رأى — رضى الله عنه — أن يجيئهم من بابها بشمر يرضَوْنه ، ومشرب يستسيغونه ، فسلك بهم طريقاً فيها ، كثيراً ما حاموا حولها ، وتلمّسوا أطيافها بحيث يجدون فيها جوهم الفكرى ، ومناخهم الصوفى الذى يستدفئون بشمسه ، ويَبْتَرِدُون بظله على طريقة أهل التحقيق والفهم فى الأسلوب والتعبير .

ويدور فى خَلَدى أن أكبر ما شجّع الشيخ على هذا التدوين ما آنَسَه فى كثير من أحبابه ، وطلاب مدرسته من استعداد للفهم

ومكان للاستيعاب ، وتفتّح أذهانهم إلى مايُعرَض عليهم من مداخل الكلام ومناهجه ، ومكامن الحكمة ونواحيها .

ولقد تمّتْ عبارة الكتاب في كل أبوابه وجالَ قلم مؤلفه فوق مستوى حصيلة البادىء ، وَضحالة تفكير الناشىء ، وذلك شىء لا مقصد فيه للتعجيز فإنما كتب بعض ما كتب للخاصّة ، وفيهم موضع للتحدث ، وذهن للمتابعة ، وإقبال على الأخذ به والسير على شواطئه في أمان واطمئنان ، ولم يحرم عامة الأحباب من حصّتهم فالكتاب فيه لكل طالب زاد ، ولكل وَسَط باب ، ولكل سؤال جواب « وخير العلم ما بنى عقلا وهذب خلقاً » .

والله أسأل أن يطيل حياة الشيخ حتى يطرفنا بالكثير من المستظرف المستملح ، والغالى من الدّرر الغوالى ، وأن يعينه على تحمل هذه الأمانة ، وأداء تلك الرسالة فى صحة وعافية وازدهار ؟

الفقير

سيف النصر محمد عشرى

الحامدى

مقدمة

للكاتب الكبير الأستاذ عبد المنعم الصاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

لولا أنهـــا مشيئته ما خطر ببالى يوماً أن أكتب مقدمة لكتاب يصدره .

ذلك أن أى كتاب له جزء منه .

وهو - رضى الله عنه - منهل عذب لايرد عن فضله طالباً ولايمنع عن فيضه مريداً .

والمعين الذى لاينضب يصل إلى الناس بنفسه ، ويحيط بالعقول والقلوب جميعاً ، فى حنو وعطف وحنان ، بلا حاجة إلى مقدمة قد تصبح :

إما عازلا بين مصدر الإشعاع والقلوب المشغولة به

أو مانعاً بين منبع الحكمة والنفوس الظامئة إليه

أو عقبة فى الطريق الذى يصل بين الشيخ ومريديه .

لكن السيد إبراهيم سلامة الراضى صاحب الكتاب ، أو صاحب هذا المنهل العذب والفيض المشرق الذى لا ينفد ، والمعين المبارك الذى لا يغيض ، أبى إلا أن أنزل على مشيئته ، فصدعت للأمر ، وأنا أدرك مدى مايسبغه علىّ هذا من الشرف والتشريف معاً .

وإنى لأعلم عن يقين ، أنى لن آتى فى هذه المقدمة بجديد ولا أنا بقادر على أن أضيف ما قد تلجأ إليه بعض المقدمات من تفسير أو تحليل أو تعميق ، لما بين دفتى الكتاب من فكر جليل .

فالكتاب سهل العبارة فى دقة واقتدار وتفوق حتى لتقف كلماته كالجواهر تتلألأ بضياء يخطف الأفئدة والأبصار .

وإذا كان كل لفظ فيه سهلا فى ذاته فإن صياغته على النحو الذى صيغ به تقيم له كياناً يتجاوز قدرات الكتاب والمفكرين والعلماء ليحتل مكانته فى كتب الفكر الدينى بأسلوب سهل لكنه ذلك السهل الممتنع كما يقول علماء اللغة .

لهذا فإنى أشعر أن أى تفسير له ، لن يصل إلى ما فيه من وضوح .

أما تحليل ما فيه من معان ، فإنى أبادر فأعترف أن ذلك فوق طاقتى ، وأن القادر على هذا يجب أن يجمع بين العلم بالدين الحنيف

والصلة القصوى بصاحب الدين ـ جل جلاله ـ وبرسوله صلوات الله عليه وسلامه .

ولعلى لا أثقل على صاحب الكتاب ، وقد جمع بين تحقيق العالم ، وشفافية الولى ، إذا رجوته ألا يبخل على آلاف الآلاف من مريديه وتلاميذه وتابعى طريقه بتفسير ما فى الكتاب من معان وعبر ، كلما وجد إلى ذلك سبيلا فى زحمة مشغولياته الجليلة بالتفكير فى الله ـ جل جلاله ـ والتأمل فى حكمه وحكمته والوقوف عند جلائل أعماله ، وتعمق لطائف صنعه ، وما يسبغه على خلقه من الرحمة والعطف والمودة .

فإن حظينا من سيادته بتحليل لما جاء فى الكتاب من معان رقيقة ودقيقة فى آن معاً ؛ فإن هذا التحليل سيكفى فى تعميق ما فيه من قيم أكثر من أية محاولة قد نبذلها فى غير طائل

* * *

على أنى مع هذا أستأذن شيخى وأستاذى صاحب الكتاب فى أن أسجل بعض انطباعاتى عما بين دفتيه من درر .

إن القسم الأول من الكتاب نوع من التحقيق العقلى والوجدانى لحقيقة الوجود ، والتفسير العميق فى هذا التحقيق يكشف لنا بما لا يحتاج لبيان مدى ما وصل إليه الكتاب من تعمق

حقيقة الوجود ، وعلاقة الخالق بكل موجود ، ومراتب كل موجود في الفكر الإلهي عندما سبق علمه - جل جلاله - إلى الوجود الكلي للكون والوجود الجزئي لكل موجود .

بل إن هذه المراتب تتدرج في العلم الإلهي من موجود إلى موجود من سيدنا آدم عليه السلام إلى كل النبيين والمرسلين إلى سيد النبيين والرسل محمد صلوات الله عليه وسلامه إلى كل موجود محدود بحدوده المادية وقدراته العقلية وبيئته النفسية وعواطفه وطباعه وخصاله وخلاله والسر الكامن خلف ذلك جميعه من روح الله صاحب هذا الوجود وسيده والآمر الناهي فيه .

وفي هذا التحقيق الممتع سنتبين من المسائل ما قد خفي علينا هذي السنين الطوال من عمرنا وما قد خفي علينا من خلال كل ما سبق من قراءات ، فأن كل الكتب التي تناولت الموضوع من قبل تناولته من وجهات نظر مختلفة ومتباينة .

فرجال الفقه يتناولونه على أنه نوع من تفسير آيات الله البينات والتفسير علم من علوم القرآن تحكمه قواعد وأسس وقوانين .

ورجال اللغة يتناولونه على أنه نوع من تفسير القرآن ، وبيان أسرار جماله اللغوي ، وقدرة التعبير فيه ، والفصاحة التي يتميز بها ، والتي هي أنه ليكون دليل الإعجاز في عصر ازدهرت فيه فنون القول

وتبارى فيه الخطباء والشعراء ، لكن أحداً لم يصل إلى هذا الحد المعجز فى التعبير .

وأهل الكلام يديرون من خلال تفسيراتهم له نظريات الفلاسفة فى الوجود ليقيموا الدليل على أن القرآن يحوى من الفلسفة مايدق حتى على الفلاسفة ، ويستغلق حتى على الحكماء .

لكن النظرة الشاملة لكل هذه الجوانب ، وفوقها شفافية فى تبين ما وراء الألفاظ من معان ، وحس بالحكمة الإلهية العليا ، وإدراك لبواطن المعانى ، وقدرة على أن يصاغ ذلك جميعه بما لايخرج على أفهامنا بكل مستوى نكون فيه .

هذا الكل المتكامل فى التفسير لم يصدر به كتاب مثل هذا الكتاب إلا ماندر .

الشمول والشفافية والحس المرهف ودقة الإدراك وتعمق ماوراء المادة من روح وما تومىء به الروح من الرؤية هى سمة التحقيق الرائع فى هذا الجزء من الكتاب .

* * *

أما الجزء الثانى : وهو ماتحويه تلك الرسالة الطلية العميقة التى وجهها الشيخ الجليل إلى أحد أحبابه ومريديه ، فتلك درة أخرى فى فن القول والتحقيق تمس جانباً هاماً مما يدور فيه الناس

ولا يعرفون كيف يحسمون أمرهم فيه .

لقد درج الناس على أن يلجأوا إلى طريق سهل وميسور ليبعدوا عن أنفسهم المسئولية ، ويزيحوا عن صدورهم عبء المساءلة عن أعمالهم .

وبينهما نجد فريقاً من غلاة المادية يتحمل مسئولية أعماله كاملة فى نوع من نكران الإرادة العليا التى تحيط بكل شىء ، وتخط مصائر كل شىء سواء فى علمها الأزلى القديم ، أوفيما هو حادث بالفعل فى كل لحظة وآن .

نجد فى الوقت نفسه آخرين من غلاة الجبرية يريحون أنفسهم من كل هذا العناء ، ويطرحون الأمر جميعه عن أنفسهم ، ويدعون أنهم موجودون جبراً سائرون إلى مصائرهم جبراً ، مخطئون جبراً مصيبون جبراً كأنما هم يأكلون أو يشربون أو يتنفسون أو يمرضون أو يتصرفون جبراً .

لكن هذا الجزء الثانى من الكتاب يمسك بالنقيضين فى كياسة وحسم فى حنو المعلم وهيبة الشيخ ونظرة العالم وحس المدقق وقدرة المحقق ليدنى هؤلاء من أولئك ، ويقرب أولئك من هؤلاء ، ويبين لأولئك وهؤلاء جميعاً — سواء منهم من فكر أو خاف على نفسه من الفكر — الحقيقة فى هذا الخلاف القديم الذى لا ييأس الناس من

تجديده والحديث فيه ، والتحدث عنه والذى يصلح ميداناً فسيحاً للاستعراض العقلى بلا حدود ، ويصلح فى نفس الوقت مجالا للرهبة والخوف من المسئولية عما تقترفه الأيدى أمام الله والناس .

إن كثيرين يدفعهم الكسل عن تحمل المسئولية ، فيلقونها على الجبر .

وكثيرون آخرون يدفعهم الجبن إلى أن ينسبوا إلى الله كل شىء متوهمين أن ذلك يعفيهم من الحساب ، أو ربما يتوهمون أنهم بهذا يقننون قصورهم وخطاياهم بإبعادها عن إرادتهم ، وردها إلى الإرادة العليا التى تملك عنها الجزاء والعقاب .

وتلك نظرة تسىء إلى الإنسان لأنها تضعه فى أحط مراتب التقدير والله سبحانه وتعالى الذى خلق الإنسان فى أحسن صورة وكرمه على الخلق جميعاً لا يمكن أن تكون إرادته قد اتجهت إلى أن يسىء إلى الإنسان بمثل ما يريد الإنسان أن يسىء إلى نفسه بهذا الادعاء ، والتحلل من المسئولية عن أعماله .

لكن إرادة الله — مع هذا — فوق كل شىء وحول كل شىء وتحيط بكل شىء .

وبين هذين الحدين يعطينا الجزء الثانى من الكتاب أروع مناقشة حول الجبرية والقدرية وحدود إرادة الإنسان فى نطاق الإرادة الإلهية للوجود كله .

وسيجد الذين يتناولون هذا الجزء من الكتاب بالوعى الكافى أن صاحب الكتاب ، قد قدم لهم مايروى غلتهم ، ويزودهم بما يحقق كرامة الإنسان .

يبقى بعد ذلك تحقيق أخير تضمنه الكتاب فى تفسير الآية الكريمة « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » ، وقد تعرض صاحب الكتاب فى هذا التحقيق لما يراه علماء الطبيعة من تفسير يتصل بالموضوع .

وفى العرض العلمى يظهر لنا بوضوح تردد العلم بين الضوء والنهار وأيهما سبب وأيهما نتيجة ثم تفسير لدرجات الضوء وتأثيرها على الكائنات ، ودورة طويلة عريضة لا ينتهى فيها العلم إلى شىء إلا إلى التفسير المادى لهذه الظاهرة الطبيعية والتى تنتهى كما بدأت فى ظلام لا نتعرف من خلاله على حقيقة الضوء ولا نتعرف منه بالتالى على حقيقة النهار ، وعلى ذلك تظل حقيقة الليل كذلك مجهولة .

لكن المحقق العارف بالله يعود إلى الله سبحانه وتعالى ، ويأخذ بأيدينا فى رفق وفى جولة هادئة طلية حول مختلف المعانى التى تفسر لنا هذه الظاهرة تفسيراً صوفياً فيه من الروحانية ومن الصلة بالله ومن الحب للذات الإلهية ، والإيمان العميق بما وراء كل مادة من سر أودعه الله . كل ذلك وسواه تضمنه التحقيق فى هذا الكتاب

وهو يفسر لنا الآية الكريمة ، ليلقى بعد ذلك الضوء على ما يقصده أهل الصوفة من تجلى المعرفة وتجلى الفكرة

ولا شك أننا نجد أنفسنا أمام هذا التحقيق مشوقين إلى مزيد منه إجلاء لبصائرنا ، ونحن نتأمل معجزات الكون .

* * *

وبعد ، فهذه مجرد انطباعات أسجلها قبل أن يبدأ الكتاب لا تقديماً لما فيه من فكر رائع ، ولكن استزادة مما فيه من نورانية أحنى أمامها رأسى فى احترام وإجلال .

عبد المنعم الصاوى

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأواه ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد ـ فإن إخواني في الله قد ألحوا عليّ وكرروا الطلب ورغبوا إليّ أن أتمم الجزء الثاني من كتاب « مرشد المريد » .

وإني وإن كنت قد رأيت الوقت غير ملائم لذلك ، وأهل هذا المشرب قد قل وجودهم بل هم أندر من النادر ، وما يطلع أكثرهم على هذه الحقائق إلا تضييعاً للوقت ، وتفكهة وتفصحا وتشدقاً بالكلام بين الناس في المجالس ، وليتقدموا به على أقرانهم ، وليتميزوا به عن سواهم ، بل ذلك مما يساعدهم على دعوى التحقيق ، وأنهم قد وصلوا إلى ما هناك ، وأنهم عدوا بين فرسان هذا الميدان ، ولذلك قد وقع في قلبي أن من يؤتى الحكمة غير أهلها فقد ظلمها ، وأن الأليق بهذا أن يصبر الإنسان حتى يسوق الله إليه أهل هذا المشرب العذب الأشهى .

ونحن ـ والحمد لله ـ نَشُمُّ من غالب إخواننا في الله الهمةَ والتعطُّشَ والصدقَ في الطلب ، ولكنها جنةٌ حُفَّت بالمكاره . وقليل من عبادي الشكور ـ وأهل الهِمَم قليل بالإضافة إلى غيرهم ، والنفوس

لها مَشَارِبُ مختلفة، ولـكنى طَوْعاً لإخوانى فى الله استخرت الله بقلبى

وعزمت على أننى أُعْرِضُ عن كل من يَطَّلع على هذا الشرح .

ويعملُ به أو لا يعمل به ، وأجعل وُجْهتى لله تعالى وَحْدَه بقطْع النظر

عن الخلق ، وعلى الإنسان أن يُـرشِد إلى الله جهده وطاقته ، وليس

عليه هُدَى الخلق ، ولا أنهم يتحقّقون أو لا يتحققون أو يعملون

أو لا يعملون .

على المرء أن يسعى إلى الخير جَهْدَه وليس عليه أن تَتِم المَطَالِبُ

وماقلت ذلك إلا لأنى كنت متوسماً فى إخوانى أكثر مما ظهر لى

ولـكنْ لله الأمر من قَبْل ومِن بَعْد .

وها نحن نشرع فى إتمام الجزء الثانى من كتاب «مرشد المريد»

وقد خطر لى أن أسميه (لَمَحَاتٌ حامدية) ونَـكِلُ الأمر إلى الله

سبحانه وتعالى ، وهو الذى بيده مقاليد الأمور ، ونسأله التوفيق

والهُدَى بِمَنِّه وكرمه آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول تعالى : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

فهل يكون لله عِبادٌ أفضلُ مِن الأنبياء ، ليس للشيطان عليهم سبيل .

وإذا كان الله تعالى يقول في بعضهم ، عليهم الصلاة والسلام : (نِعْمَ الْعَبْدُ) ، ويقول لبعضهم : (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) ، وللبعض : (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) ، ولسيدهم عليه الصلاة والسلام : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

فَمِنْ أين للشيطان أن يكون له عليهم سبيل أو سلطان ، حتى يفعلوا ما حَرَّمَ اللهُ عليهم ؟ وإذا كان الله تعالى قد حَرَسَ السماء ، وحفظها من كل شيطان رجيم ، فليس ببعيد أن يحفظ أنبياءه من الشيطان .

فإن قلتَ : إنك قد أكثرت مما يُفيدُ تَحْسِينَ الظَّنِّ بهم ، واعتقادَ الكمال فيهم ، ونحن والحمد لله نعتقد فيهم من الكمال أكثرَ مِمَّا وَصَفْتَ ، ولكنك لم تبين وَجْهَ كَوْنِ الْحَقِّ تعالى أَخْبَرَ عنهم بوقوع الذنب منهم ، فإننا لم نقل بذلك من عند أنفسنا ، وما قلناه إلا تصديقاً لِمَا أَخْبَرَ بِهِ الحق في كتابه ، وأَخْبَرَ به رسولُ الله

عليه الصلاة والسلام ، ونعتقد أن الحقَّ قد طهَّرهم بعد ذلك بالتوبة كما ورد فى الشرع ، كتوبة آدم وداود وغيرهما ، وأنَّ العصمة هى عناية الله بهم ، فلا يقع منهم شىء من المخالفة إلا والحق يبادره بالعقاب ، حتى يتوب إلى الله فيتوبَ الله عليه ، كما ورد ذلك فى كتاب الله وسنة رسوله ، وقد تَبَيَّنَ لك بذلك أننا لم نَأتِ بشىء مما وقع منهم للتحقير ، أو لظن السوء بهم ، حاشا وكلا .

وإنما هو لتصديق الله فيما أَخْبَرَ به ، فإن أردتَ بما أَوْرَدْتَ فى كلامك ، أننا نُحْسِنُ الظن بهم ، فهذا هو اعتقادنا ، وبقى عليك أن تُبَيِّنَ لنا مذهبك فى معصية آدم عليه السلام ، وبعضِ ما وقع من الأنبياء مِمَّنْ ذُكِرُوا فى الكتاب والسنة ، وعليك بالتزام جانب الإنصاف فيما تأتى به ، والله يتولى هُدانا وهُداك ، فاعلم أن ما فهمتَه من أن ما ورد فى القرآن والسنة ، يُفيد صريحاً أن آدم عليه السلام ارتكب المَعصية ، فليسَ هو كما فَهِمْتَهُ بل هو مُؤَوَّلٌ ، وإذا كان كل لفظ فى القرآن والحديث تُعِدُّهُ من قبيل النص الصريح ولا تأويل له ، فإن الله تعالى يقول : (الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) ، ويقول : (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) ، وإذا اعتبرتَ هذا نَصًّا صريحاً لا تَأْوِيلَ له ، فقد قلتَ بأن الله قد اسْتَوَى على العرشِ بمعنى الاستقرارِ والجُلُوسِ ، وَلَقُلْتَ بأنَّ اللهَ تعالى له يد بمعنى الجارحة ، والله تعالى مُنَزَّهٌ عن كل هذه الأوصاف .

ومتى ثبتَ تَنْزِيهُ الحق تعالى ، وَجَبَ صَرْفُ معنى الاستواء عن المعنى المعروف بين الناس إلى الاستواء الذى يليق بالحق ، وكذلك يُقالُ فيما وَرَدَ عن آدم عليه السلام من أنه عَصَى ربَّه ، ولو تأمَّلْتَ قليلا لرأيتَ أنَّ الحق الذى أخبرك بأنه عصى ربَّه التمس له عذراً ، فقال تعالى : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) .

وإذا ثبت بالقرآن أن المعصية التى أخبرَ اللهُ بها عنه كانت مع النِّسْيان ، وقد علمتَ أن معنى ما ورَدَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن الله قد تجاوز لأُمَّتى عن الخطأ والنِّسْيان ، وبذلك ، وجبَ عليك أن تخفف من غَلْوَائك ، وليَهْدَأ رُوعك ، ولا تظنَّ أن ما ورد من عصيانه ليس كما تفهمه بل هو خلافُ الأَوْلَى ، لأن الله قد آخذ آدمَ على النسيان بحسْب رتبته وسَمَّاها معصيةً بحسبه ، ولكن ذلك لو وقع منك لما سُمى ذنباً ، وحسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين ، ولعل الله تعالى إذ قال : (فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) يريد أن آدم لما نَسِيَ فعلَ ما فعلَ مِن غير أن يكون له عزمٌ على مخالفة ربِّه فإن قلت بعد ذلك كيف يَعْصِى ربَّه ويؤاخذه الله على معصيته ، ثم يُقال إنه كان ناسياً ، فلو كان ناسيا لم يكن عاصيا ، قلنا لك ، هذا اعتراض منك على ربك فيما ورد عنه فى كتابه ، فإذا كان الذى أخبرك بأن آدم قد عصى ربه هو الذى أخبرك بأنه كان ناسيا ، فلِمَ لَمْ تُصَدِّقْ ربَّك

فى أنه عصى وأنه كان ناسيا كما أخبرك ربك ؛ وأن آدم يُعَدُّ عاصيا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وعلى قَدْرِ درجته كانت مؤاخذتُه ، ومَن كان مِثْلُ آدم عليه السلام ، الذى علّمَهُ اللهُ الأسماء كلَّها ، وأسْكَنَ فى صُلْبِه النور المحمَّدِى ، وخَمَّرَ طينتَهُ بيدِهِ ، وأسْجَدَ له ملائكته يُؤاخَذُ على خلافِ الأوْلَى .

وقد قيل : إن الجُنَيْدَ ـ رضى الله عنه ـ كان يتوضأ على شاطىء النهر فوجد رجلا يلتقط ما سقط مِمَّن يغسلون البَقْلَ . فقال فى نفسه ، لو احترف هذا لاستغنى عن التقاطِ ماسقط من البَقْل ، ثم لما جاء الليل أراد الجنيد أن يقرأ وِرْدَه ، فلم يجِدْ لذةً ولا حلاوةً لعبادته ، ولازال هكذا حتى أخَذَتْهُ سِنَةٌ من النوم ، فوجد جماعة يحملون طَبَقاً وقد وُضِعَ عليه ذلك الرجل الذى كان يلتقط البقل ، وقدَّموه للجُنَيْد ، وقالوا له : تَقَدَّمْ فَكُلْ ، فقال : إنى لم أقْصِد غيبتَه ، ولكن أردت له حالا أحسنَ مما هو فيه ؛ فقيل له : مِنْ مِثْلِكَ لا يُقْبَلُ هذا ، فاذهب واطلب منه أن يَصْفَحَ عنك .

فلما جاء الصبح ذهب الشيخ ليتوضأ فوجد ذلك الرجل ، فقال الرجل يا أبا القاسم : إن الله يعلم ما فى نفسك ، فقال الجنيد تبنا إلى الله ، فقال له : عفا الله عنك يا أبا القاسم ، وغاب الرجل فلم يره الجنيد فعَرَفَ أنه ولِيٌّ من أولياء الله .

وقيل : إن امرأةً جاءت إلى الإمام أحمد بن حنبل فقالت : يا إمام

إن الرجال المُوَكّلين بحِفظ البلد يأتون ليلا فيقفون فى ساحة أمام منزلنا ومعهم المشاعل ، أفنَغْزِلُ فى ضوئها ؟ فقال لها : مَن أنتِ ؟ فقالت : أنا أخت بشرٍ الحافِى ، فقال : مِن بيتكم خرج الوَرَع ، لا تَغْزِلى فى ضَوْئِها .

وقد قيل : إن رجلاً جاء إلى الحسن البَصْرى رضى الله عنه وقال له علِّمنى الورع ، فقال : تسألنى عن شىء كنتُ فيه وذهَبْتُ ، ثم أرسله إلى أخ له فلاح ليُعَلِّمه الورعَ فلما ذهب إليه الرجل وأخبره بذلك ، فقال له الفلاح ، رَحِمَ الله أخى الحسَن ، لقد ظن أنى باقٍ على الورعِ ، ولكنه قد ذهب عنى ، فإن لى بقرةً كانت فى غَيْطِى فخرجت منه ، ودخلت غيط جارى فتعلَّقَ برجلها شىء من الطين ، فدخلت به غيطى واختلط به فذهبَ ورعى .

وكثيرٌ من الأشياخ كانوا فى هذا المقام ، وكانوا يُؤَاخِذُون أنفسهم إذا أُخَلوا به مُؤاخذةً شديدةً ، حتى أن الشِّبْلِىَّ رضى الله عنه كان إذا دخلَتْ عليه غفلة يضرب نفسه بالخَيْزَرَان .

فإذا كان هؤلاء الرجال على هذا الحال ، فما بالُكَ بآدم عليه السلام ، وله من الخصوصيات ما عَلِمْتَه ، فلذلك كانت مؤاخذته بحَسْبه ، وذنبه بحسبه ، وأن حسناتِ الأبرار سيئات المقربين كما عَلِمْتَ ، وقِسْ على ذلك بقية ما وَرَدَ عن كثير من الأنبياء والرسل

تجدُ غالبها من هـذا الباب ، فضلا عن كون الخـبر الوارد يحتمل التأويل ، فلم يـكن نصاً كما زعَمْت ، وإذن وجب عليك أن تقول بعصمة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأن ماوقعَ منهم ليس هو كما يقع من غيرهم ، ولا معاملتهم عند ربهم كمعاملة بقية النـاس بل لهم عند ربهم الدرجات العُلَى والمقامات السامية ، التى تقضى بأن يؤاخذهم الحقُّ على ما ليس بمحرَّم ولا مكروه ، بل يؤاخذون على أقل من ذلك .

أفاض الله علينا من بركاتهم ، وجعلنا ممن يهتدون بهـديهم ، ويقتفون أثرهم ، بجاه سيد الخلق على الإطلاق ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وإذا عَرَفت أن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، تَجِبُ لهم العصمة ، فـكذلك تعـلم أنه يجوز عليهم من الأعراض البشرية مالا يَشين مراتبهم العليَّة ، فلا يجوز عليهم نحو الجُـذام ، وتشويه الخِلقة ، ولا مايحكيه بعضهم عن أيوبَ عليه السلام ، من أن زوجته كانت تحمله فى قفة وجسمه قد تَهرَّى من المرض ، فإن هذا كله مما لا يليق بمراتبهم العليـةِ ؛ إذ لو كان رسولٌ على هـذا الشكل لنفرَت منه القلوب ، واشمأزت منه النفوس وكان مُسْتقذراً ، وهم منزهونَ عن مثل ذلك ، ولـكنَّ المرض الذى لا يـكون على هذا

الوصف لا بأس به ، فلا نقعُ فى القول بأن يعقوب كان أعمى ، وكذلك شعيبٌ عليهما السلام .

ولا تتّبعْ مايتشدقُ به الجهلاء ، فإنهم يكيلون القول جُزافاً ، وكلٌّ ماهو من هذا القبيل إنما هى من الإسرائيليات التى لا ينبغى الاعتماد عليها ، لا سيما إن كان فيها تنقيص لرسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

واعلم أن الله تعالى إذا أرسل رسولا ، كان قلب ذلك الرسول بيد الله فلا يتحركُ حركة ، إلا والحقُ يمدُّه فيها بعنايته ورعايته ، وإذا كان الولىُّ يصل فى سيره إلى ربه إلى مقامٍ لا يخطر له فيه سوى الله تعالى ، فالرسول من باب أولى ، بل الولى حسنةٌ من حسنات الرسول وإذا كان الرسول لا يخطر له سوى الله تعالى ، فكيف يبلِّغُ الأمةَ أوامر ربِّهِ ، إذا لم يعقل زيداً وعمراً وبكراً ؟

وجوابه أن الرسولَ فى رؤيته للخلق يراهم بربهم لا بهم ، إذ يراهم لذاتهم لاشىء ، وإنما يراهم شيئاً بالله تعالى ، فمهما يكن منهم ، فإنه يراه بالله لا بنفسه ولا بأنفسهم ، بل بربه وربهم ، وعلى ذلك لا يخطر له سوى ربِّه ، وإذا كان الرسول غريق الأنوار والأسرار والتجليات فكيف يرى غير ربه ، وهذا أمر ميسور لغير الرسول ، فالرسل عليهم الصلاة والسلام لهم فيه التمكين والرسوخ ، وإذا

كان الله تعالى يقول فى الحديث القدسىّ (ولا يزالُ عبدى يتقرّب إلى بالنّوَافل حتى أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصرهُ الذى يبصرُ به ، ورجلَهُ التى يمشى بها ، ولسانه الذى ينطقُ به) ونحن نعتقد ذلك للولىّ ، فالرسول أولى وأحرَى ، وإذا كان الرسول قد فاق غيرهُ فُرُوضاً ونوافل ، فهو أولى بأن يكون الحقُّ تعالى يدهُ وسمعهُ وبصرهُ ... الخ الحديث .

وإذا علمْتَ أن الرسول كذلك ، فمن أين يأتيه الشيطان ؟

وتعرف من ذلك شيئاً من مقام الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأن الرسولَ يُنْفَثُ فى رُوعِهِ ، ويكلمه الحق ويحادثه ويخاطبه ، وإذا كان الولى يُسَلَّمُ له ، أنه غريق التجليات والأنوار بحيث لا ينطق إلا عن الله ، ولا يقومُ ولا يقعدُ إلا بالله ، ولا يسمع ولا يُبْصرُ إلا بالله ، ولذلك قال بعضهم :

ما حُرْمةُ الشيخ إلا حرمةُ اللهِ ... فقُمْ بها أدَباً للهِ باللهِ
هُمُ الأدِلاّء والقُرْبَى تؤيِّدُهم ... فما حديثُهُمُو إلا عَنِ اللهِ
كالأنبياءِ تراهم فى محَارِبِهِمْ ... لا يسألونَ من اللهِ سوى اللهِ

فالرسول أولى بهذا المقام ، فلا ينطق عن هواه ، ولا يفعلُ إلا بالله ، وأنه لا يأمُرُ إلا بما يرضى الله به ، ولا ينهى إلا عما يُغضبهُ ويسخطهُ .

فإن قلت : إن كل ماذكرتَه غير الوحى ، الذى ينزلُ عَلَى النبىِّ والرسولِ ، قيل إن المرادَ إثباتُ أنَّ الرسولَ خلِقَ صافياً من أكدار الشهوات وظلماتِ المعاصى ، وأن الشيطان لا سبيل له عليه ، وأنه إذا كان غريق الأنوار مكلَّماً مخاطباً محدَّثاً ، يُنفث روحُ القُدْسِ فى روعِه ، يرى بعين بصيرته الأمورَ على حقائقها ، وإذا كان كذلك ، ثبتت له العصمة من الذنوب ، وأنها لا تجوز عليه بل لا تخطر الذنوب للنبى ولا للرسول ، فإن قلبه قد امتلأ بأنوار ربه ، وليس فيه متسع للمعاصى ولا للشياطين .

وقد كنا نتكلم على جواز الأعراض البشرية ، التى لا تؤدى إلى نقص فى مراتبهم العليَّةِ ، فأبى اللهُ إلا أن نعودَ للكلام على وُجوب عصمتهم عليهم الصلاة والسلام .

وقلوب الخلق بيد الله تعالى ، نسأله التوفيق والهدى بمَنِّهِ وكرمه .

واعلم أنهم قد جعلوا الوحىَ أقساماً ، فمنها أن يتمثل له الملَكُ رجلا كمجيئه فى صورة دِحْيَةِ ، وفى صورة الأعرابى ، ومنها مجيئه فى شبه صَلْصَلَةِ الجرس ، وهو يُشْبه وَقْعَ الحديد على الصوَّان بشدة عظيمة ، وهذا كان أصعبَ أقسام الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنها أن الرسول كان يستغرقُ فيما يَرِدُ عليه ،

حتى يُسْمَعَ له غطيطٌ ثم يُناجى ، ومنها أنه كان يظهر له فى الأفقِ المبينِ بأجنحته وعِظَمِ خلقه ، وهى التى قال الله تعالى فيها « ولقد رآهُ بالأُفُقِ المبين » ومنها تنزُّلُهُ على قلبِ الرسول عليه الصلاة والسلام وهى التى قال الله تعالى فيها « نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قَلْبِكَ » ومنها ماوَقَعَ للرسول عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء ، أنه تقدَّم عن جبريلِ عليه السلام ، ثم ناداه جبريل من ورائه : قِفْ يامحمدُ فإنَّ رَبَّكَ يُصَلِّى ، ومنها الرؤيا المَنَامِيَّةُ ، وقد وقع ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ستَّةَ أشْهُرٍ ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصُّبْح ، وذلك معدود من أقسام الوحى ، ومنها اجتهاده صلى الله عليه وسلم فى الأحكام ، فاجتهاده معدود من أقسام الوحى .

وإذا عرفت ماسلف مما ذكرناه من وجوب عصمتهم ، اعتقدتَ بأن اجتهادهم فى الحُكم من أقسام الوحى .

واعلم أن جبريلَ عليه السلام ، مخلوقٌ من نور رسول الله صلى عليه وسلم ، فهو رقيقة من رقائق الحضرة الكُلِّيَّةِ الأحْمَدِيَّةِ ، وهو سابح بِتَعَيُّنِهِ فى بحر الحقيقة ، فيسْرِى من وجه حَقٍّ إلى وجه خلق ، بمعنى أن الحقيقةَ الكُلِّيَّةَ الأحْمَدِيَّةَ من حيث ربُّها غَيْبٌ مَحْضٌ فى حضرة العلم ، أى غيب عن نفس الحقيقة الأحمدية لأن الذات الأقْدَسَ له رُتبةٌ لاتَصِلُ العقولُ إلى كُنْهِها ، فتحيط بالحضرة الأحمدية إحاطةً مُنزَّهةً عن صفاتِ المُحْدِثاتِ ، فتكون الحضرة الأحمدية مُغَيَّبَةً

لا يُدْرَى لها كُنْهٌ وَلاَ اسْمٌ ، ولا وصفٌ ولا زمان ولا مكان ، ولا جوهرٌ ولا عرضٌ ، ولا تُوصفُ بوصفٍ من الأوصاف ، بل لا تُعْرَفُ فلا يقال إنها قديمة ولا حادثة ، إذ لم تكن شيئاً ، ولم يُطْلَقْ عليها لاشيء ولا تُعَدُّ وجوداً ولا عَدَماً ، إذْ لو عُرِّفَتْ بشيء من ذلك لم تكن مُغَيَّبَةً ، فإذا أراد الله تعالى أن يُبْرِزَ هذه الحقيقة ، تَوَجَّهَتْ قدرتُه وإرادته بإيجادِها ، إذْ لم تكنْ يُطْلَقُ عليها اسمُ الوجودِ ولا غير الوجود . أَوْجَدَها وهو الذى أعطاها رُتبة الوجودِ ورتبةَ الظهورِ ورتبة المخلوقيةِ ، وأعطاها كلَّ صفاتِها ، قال تعالى : « أَعْطَى كلَّ شيء خَلْقَهُ ثم هَدَى » فلولا أن أعطاها رتبة الوجود لَمَا استطاعت أن تَهَبَ نَفْسَها هذه الرتبةَ .

ولا تَسْتغرب قولنا إنها لم تكن يُطلقُ عليها غيرُ موجودٍ ، فإنَّ أَزَلَ الحَقِّ قديمٌ ، وهو سبحانه يرى الخلقَ ويَعْلَمُهُمْ فى أَزَلِهِ وهم غير موجودين فى رتبة الإمكانِ ، فإذا أراد الله إظهارَهُمْ ، فإنَّ إرادتَه تعالى أَزَلِيَّة لا تَتَجَدَّد حتى يُقال إنه كان يعلمهم مَعْدُومِينَ ثم بعد ذلك أراد إيجادهم ، وإنما الحق مُرِيدٌ فى الأزل ، وقد علمتَ أن الأَزَلَ لا ينقسمُ ، فالحق يريد فى أَزَلِهِ إيجاد فلانٍ ، ثم يُوجَدُ فلان فى رُتبةِ الإمكانِ ، وأما رتبة الأَزَلِ فإنها على ماهى عليه ، ولم تنقطع ولم تتجدد ولم توصف بالامتداد ولا بمقارنة زمان ولا مكان ولا هى كوصف المخلوقات ، فالحق يعلم ويريد ويُبْصِرُ ويسمع ويتكلم

ويفعل فى الأزَلِ والأبَدِ من غير بدايةٍ ولا نهايةٍ ولا انقسامٍ ولا امتداد ولا تجَدُّدٍ ، ويكون ذلك عندنا فى الحدوثِ بمعنى أن الله يعلم بوجود زيد ومايَحْدُثُ له وما يَعِيشُهُ والوقتِ الذى يموت فيه ويريد كل هـذا ويُبْصِرُهُ بحيث أن الحق يقول لِيَكُنْ زيداً موجوداً ، وذلك فى الأزل فيكون زيداً فى الحُدُوثِ ، ويقول فى الأزَلِ من غير انقسام عن أمْرِهِ الأول لِيَكُنْ مَعْدُوماً فينعدم فى الحدوث ، فهذا اليوم الذى نحن فيه حادث عندنا ، وهو للحق أزل لا بمعنى أن أزل الحق يُعَدُّ بالأيام ، أو يجوز عليه الانقسام ، أو تمر عليه الدهور والسِّنُونُ ـ حاشا لله تعالى ـ فالحقُّ مُنزَّه عن ذلك كلِّهِ .

وإذَا كان الخلقُ مُنْكَشِفاً لله فى الأزَلِ ، فهذا الانكشافُ بحَسْبِ الحق لا بحَسْب الخَلقِ ، وليس فيه لرتبة الإمْكانِ قَدَمٌ ، وإنما هو مايَجِبُ لله من حيث كمالهُ الأسمائىُّ الصفاتى .

وأما من حيث الخلق ، فليس لهم إلا رتبة الإمكانِ التى لاتَنْفَكُّ عن المَخْلُوقيَّةِ والحُدُوثِ ، وإذا كنت تعتقدُ أن الرُّوحَ تُغَيِّبُ ماتشاء من الأجسامِ والجبال عَنْكَ ، بحيث أنك تمشى مكانَ الجبل وتمسُّه بيدكَ ، ولا ترى جبلا هناك ، فهل الجبال لم تنتقل من مكانها ولم تتغير أوزالت من مكانها وانتقلت إلى مكان آخر ؟

لاشك أن الجبل قد غاب فى روحانية المَلَكِ التى لم يَكُنْ فيها

زمان ولا مكان ، وهذا الأمر ليس قاصراً على الأرواح الملكوتية ، بل هو جائز فى حق الولى والنبى والرسول .

وانظر كيف رفعَ الله بيت المقدس على جناح جبريل عليه السلام حتى وصفه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقريش عندما كذّبوه فى الإسراء واجتمعوا وقالوا له : إننا قد رأينا بيت المقدس فصِفْهُ لنا ، وقد مات أحَدُ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، والنبى صلى الله عليه وسلم كان فى غزوة ، فارتفعت الأرضُ حتى رأى الرسول عليه الصلاة والسلام جِنازَته ، وذلك كان إكراماً لذلك الصحابى ، لأنه كان يُكْثِرُ من قراءة (قل هو الله أحد) .

ولا تظنَّ أنى أقصِدُ بأن الخلق قُدَماء والحق تعالى غيَّبَهُمْ فى أنوار ذاته ، ولكنى أقصِدُ أن الأكوان كلها منكشفة لله أزَلاً ، من حَيْثُما يقتضيه كمالهُ وتَعَلقُ إرادتِه وسَبقُ عِلْمِه ، فالمخلوقات من هذه الوُجْهَةِ لا أوَّلَ لهم ، وأما من حيث إمكانهم فقد حَدَثُوا وَخُلِقُوا بعد أن لم يكونوا مَوْجُودِين .

ولا تظنَّ أنَّ سَبْق العِلم ، هو أن علمَ الحَقِّ كشف الخلق قبل وجودهم ، فإن هذا ممنوع ؛ إذِ القَبلُ والبَعْدُ من صفاتنا ، فالآنُ الذى نحن فيه ، يعلم الحق فيه ما نحن عليه ، لا بمعنى مقارنةِ الزمان ، ولكنه علم أزلىٌّ لا ينقسم فيه ما كان قبلنا ، ولا ما كان فى حالِ وجودِنا ، ولا ما يكون بعد عَدَمِنا وعدم الخلق كلِّهم ، وامتداد

الزمان لا يقدحُ فى أزلِ الحقّ ، بل لو كلّفتَ ملكا من الملائكةِ أو رُوحاً من الأرواح التى قد صفتْ وتطهّرتْ ، أن يكون فى هذا العالمِ ويُحرّكَ أشياء كثيرةً ويُسكنها ، ويُعطى هذا ويمنع هذا ، وهو مع ذلك يرى أنه لم يَحُلّ فى هذا العالمِ ، بل هو فى عالمه الملكوتى لَفَعَلَ ، بل هو الواقع فيكون الملك مَعَكَ فى بيتك ، وهو يرى نفسه بستمائة جناح وأنه يملأ الدنيا كلها ، أو يرى أنه أكبر من الدنيا بمراتٍ لا تنحصر ، مع كونِهِ يرى نفسه فى بيتك ، إذ رؤيته نفسه فى بيتك لا يمنعه من عالمِهِ ، فهو متحقق فى عالمه مع كونه ناظراً إلى بيتك ، فلا يحجبه هذا عن هذا ولا العكس .

فإذا كان الزمان والمكان لا يقدحانِ فى ملكوتية الملك ، ولا فى رُوحانية الولى ، فالحق له التنزيه الذى ليس فوقه تنزيه ، وكل ما ظهر على الملَكِ والولى والنبى والرسول إنما هو قطرة من بحر فيض كمالِهِ سبحانه وتعالى .

وإذا علمْتَ أن المكوّنات كلها كانت غيباً فى حضرة العلمِ والإرادةِ والسمعِ والبصر والقدرةِ ، لا تعرفُ نفسها والحق كاشفٌ لها ، لا بمعنى أنها كانت عدَمًا مُقدَراً ؛ إذ العدمُ المقدرُ يقتضى أن الله قدّر الأشياء وعلِمها مقدرةً ، ورآها مقدرةً وسمعها مقدرةً ، ثم بعد ذلك أوجدها ثم علِمها موجودةً ، ورآها موجودةً وسمعها موجودة

وأبصرها موجودة ، بل الحق تعالى كاشف لها فى أزَلِهِ موجودةً وهى فى إمْكانِها .

وإذا علمت أن الأزلَ لا يقال فيه قبل الإمكانِ ولا بعده ، فهمت أن علمه بها موجودةً ورؤيتهُ إيّاها موجودةً كلُّهُ أزلىٌّ ، وعرفت أن الحق إذا أراد شيئاً ، يقول له كن فيكون ، فالعلم والإرادة والأمر والسمع والبصر ، هذه الصفات كلها تتوجه على المخلوق فيوجَدُ فى حالِ الأمر ولا يتخلف لحظةً ، وإذا كان لا يتخلف لحظةً ، فالأمر الأزلى مُقارِنٌ المقدور الذى ظهر ، ولكنها مقارنةٌ بمعنى عدم التخلف ، لا بمعنى أنّ زمان المخلوق زمان للأمر الإلهى الأزلى ، فالحق مُنَزَّهٌ عن الزمان والمكان ، ولا يتغير علمه ولا صفاته بتغيرات الحوادث ، ولا يقال إن الممكنات كانت أعداماً مقدّرةً ، إلا إذا رجعت إلى رتبةِ الإمكان التى يظهر فيها التغيرات وتبرزُ فيها الحوادث ، فإن المخلوق إذا كان الله قد أراد إيجاده ، ولم يكن قد ظهر فى رتبة الإمكان ، يسمى عدماً مقدّراً باعتبار رتبة الحوادث وأما من قِبَلِ الحق تعالى ، فإنه لم يكن بعلمها مقدرةً ثم علمها موجودة فإن عِلمه منزهٌ عن التغيُّرَاتِ .

وإن قلت إذا كان الحق تعالى ، لا يقالُ فيه إنه كان يعلم الأشياء مقدرةً ، فإنه يلزم عليه أن يعلمَها موجودةً وهى غيرُ موجودةٍ ، قيل

إن هـذا يَرِدُ لو كان علمُهُ الأزلى منقسمًا وأما إذا لم يكن منقسمًا ، فلا يقال إن علمه بها قبل وجودها غير علمه بها بعد وجودها ، وإنما كان التغيير فيها لا فى علم الحقِّ تعالى .

ولقد زلَّ ممن ادعوا الغوصَ فى التوحيد وتكلموا فيه بما سيحاسبُهم اللهُ عليه ، عفا الله عنهم وعفا بمنه وكرمه .

فلا تَلتفت إلى قولهم : تعلُّقٍ صُلُوحِيٍّ ، ولا تعلقٍ تنجيزىٍّ ، واطرحه وخذ ماذكرتُهُ لك ، فإنه صفوة التوحيد ، وخلاصته ولبابه وتمتع بالشهد ولا تَسَلْ عن لواسِعِهِ ، ولا تَسَل عن حسود راحٍ ينكرُها ، ولا أقول وهو الحاذقُ الفَهِمُ ، فلو كان حاذقاً لما أنكرها ، وعلى كل حال فما خرجنا عن كتاب الله وسنةِ رسولهِ عليه الصلاة والسلام ، ومن ادَّعى ذلك أجبناه بقوله تعالى : « قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادقين » .

اللهم إلا إذا كان القلم قد سبق إلى غير مُرادى ، أو كان تقصيراً فى تعبيرى أو ما يشبه ذلك ، أقول هذا وأستغفر الله العظيم من كل مالم يَرِدُ به كتابٌ ولا سنةٌ ، وأسأله التوبةَ والمغفرةَ بمنه وفضله ، إنه كريم حليم رءوف رحيم .

واعلم أن قولنا إن الأشياء كانت غيباً فى حضرة العلم والإرادة والسمع والبصر ، لا بمعنى أنها كانت غيباً من حيث كَشْفُ اللهِ

أعيانَها ، بل هى غيبٌ من حيث قَبْلِيَّتُهَا الإمكانيةُ ، فتكون فى هذه القبليَّةِ الإمكانيةِ لا تعرفُ نفسَها ، وأما من حيث كشفُ عِلمِ اللهِ للأشياء ، فإنها لم تكن غيباً : بمعنى عدم الانكشاف للعِلْمِ ، لما عَرَفتَ من أن علم الحقِّ بالأشياء أزلىٌّ ، وكونها غيباً من حيث قبليَّتها الإمكانيةُ لا يجعلها حادثةً من حيث تعلقُ العلم ، وكونُها قديمةً من حيث تعلق العلم القديم بها يجعلها مُغَيَّبَةً فى شئون الصفات ، إذ لا يكون حادثاً قديماً أبداً ، والقِدَمُ إنما هو لله تعالى . وهل ما هو مُغَيَّبٌ فى شئون الصفات وهو قديم غير المكوَّناتِ المُحْدَثةِ ، قيل إن كشف الحق للمكوناتِ قديمٌ ، وهذه شئون صفاته ، والكشفُ يليقُ بجناب الحق ، وثبوت المنكَشِفِ فى عِلمِ الحق بحال يناسب الصفةَ التى ثبت فيها ، وإذا أوْجَدَ الله المخلوقاتِ فى رتبة الإمكان كانوا كما ثبت فى العلم لأنهم ظاهرون فى رتبة الإمكان ، وعلم الحق فى رتبة التنزيه .

وقد تكفى هذه الإشارة ، فإن فهمتَها فقد أجزلَ الله لك العطاء وإذا عرفت أن الأشياء كانت مغيبةً عن نفسها ، عَبَّرْنا بأنها كانت غيباً فى عِلمِ الحق ؛ إذ لم يكن لها أثر ولا وجود فى رتبة الإمكان .

إذا فهمتَ ذلك عرفت أن جبريل عليه السلام لما كان مخلوقاً من الحقيقة الكلِّيَّةِ الأحديَّةِ كان رقيقةً من رقائقها ، واسماً من

أسمائها ، وبابا من أبوابها ، وعينا من عيونها ، وتعيُّنا من تعيُّناتها وإشرافا من أنوارها ، وتنزُّلا من تنزُّلاتها ، وتعرُّفا من تعرُّفاتها وموجة من بحرها ، وقبسة من نورها ، ولطيفة من لطائفها ، ولوحا من ألواحها ، وسدرة من جنتها ، وسفيرا فى أفقها إلى مركز جلال نورها المبين ، وهو الحقيقة المحمدية التى جمعت بحقيقتها مائبت فى الحضرة الأحمدية ، فإذا بدا من أفق كنه باطن الذات تنزّل إلى فلك سماء ظاهر الأسماء والصفات ، بالشئون الذاتية والصفاتية والأسمائية ، ظهر سر ذلك فى أفق الحضرة الكلية الأحمدية ، من حيث تجلّى الحق ، لا من حيث الرتبة الإمكانية ، فإذا تلقى ذلك وجه الجبروتية الباطن فى أفق الحضرة الكلية الأحمدية ، علمته الحقيقة الكلية الأحمدية من وجه جبروتيتها ، فإذا تنزّل ذلك منها بها ، فيالها من حيث سريان وجه الجبروتية من أفق باطن كنه ذاتها الأحمدية إلى فلك سماء ظاهر الأسماء والصفات المحمدية ، ظهر تعيّن السريان الجبرئيلى بالرقيقة الكلية العظمى فى الملك والملكوت ، وهى ذات جبريل عليه السلام ، فأتى بتنوعات ما تقتضيه المواطن من قهر ورحمة وفيض وقبض وبسط وأنس ، وبيان أحكام ، وعتاب مؤمنين ، وتوبيخ مذنبين ، وتوبة التائبين وإرهاب الكافرين ، وتغليظ على المنافقين ، فإذا كان السريان الجبرئيلى بالتنزل على الحضرة المحمدية من حيث القهر والجلال ،

أو العذابُ أو التوبيخُ ، كان التَّنَزُّلُ شديداً جداً ، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان في بعض الأوقات يُسْمَعُ له غطيطٌ وَربما سُجِّيَ بثوبه . أو تبركُ به الناقةُ ، أو يكونُ فخذه على فخذِ بعضِ أصحابه فيكاد يذوب لشدة ثِقَلِ فخذِ النبي عليه السلام عند تنزُّلِ الوحي ، ولذلك قال تعالى : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » .

وإذا كان التنزُّلُ بفرح أو أنس أو بشارةٍ أو رحمةٍ أو مايشبه ذلك ، كان التنزُّلُ مُتلوِّناً بلَوْنِه منصبغاً بصبغتهِ ، فلا تظهر له شدةٌ ولا ثِقَلٌ ، بل يُرَى النبي صلى الله عليه وسلم ، تلوحُ على وجهه أنوارٌ مشرقةٌ ولمعانٌ ، وهو وإن كان لا يخلو من أن يتصبَّبَ عرقاً وأنه يُسَجَّى بثوبه ، ولكن لا يجدُ صلى الله عليه وسلم فيه مافي الذي قبله بل يجد أُنساً وانشراحاً وفرحاً وابتهاجاً .

إذا تقرر ذلك فأمرُ الله كامل أزليٌّ دائم باقٍ سرمديٌّ ، فإذا توجَّه في تنزيهه ظهرت الحقيقةُ المحمدية بالشئونِ الإلهيةِ ، فتنزَّلَ الأمر من باطن تجلِّي الذات ، إلى فلكِ ظاهر الأسماء والصفات ، يحمله سفيرُ العِلم في حضرة الأمر القديمِ ، فيتنزَّلُ به من باطن التجلِّي الكلِّيِّ عَلَى الحقيقةِ المحمديةِ تفصيلا لذلك التجلي الكلِّيِّ ، فافهم ، وإذا فهمتَ فالزمْ ، عَلَّمَكَ الله ما لم تكن تعلم ، وبذلك تكون قد فهمتَ شيئاً من معنى قوله تعالى : « لقد جاءكُمْ رَسُولٌ » وأما قوله تعالى : « مِنْ أَنْفُسِكُمْ » فيُفهم منه أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، إنما جاء ليُنذر من كان حياً ، ومعنى ذلك أن الله تعالى خلقَ الخلق فى ظلمةٍ ، ثم رشَّ عليهم من نوره ، فمن أصابه ذلك النور ، فقد آمنَ ومن لم يُصِبْه فقد كفر ، ومن معنى ذلك ، أن الله خلقَ الخلق ولم يكن لهم نورٌ بذاتهم ، فجعل اللهُ لمن أراد به خيراً نوراً من عنده ، وأما من لم يُرِدْ الله به خيراً لم يجعل له نوراً ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فهو المهتَدِ ومن يُضْلِلْ فلن تجدَ لهُ ولياً مُرْشِدًا .

ولما خلقَ آدمَ ، أخرجَ ذريتَه من ظهره على هيئة الذرِّ ، وقَسَّمَهُمْ قسمين ، وقال هؤلاء للجنة ولا أُبالى ، وهؤلاء للنار ولا أُبالى ، فلما جاءوا إلى الدنيا وظهروا فيها ، وأرسل الله رسوله بالهدى ودين الحقِّ ليُظهرَه على الدين كلِّه ، فَمَنْ كان مِمَّن أصابَه النُّورُ المرشوشُ فى الأزل ، وَأَثرُ الرش ظهر على الخلق عند وجودِ أرواحهم اتَّبعَ المصطفى صلى الله عليه وسلم وآمنَ به ، وهذا هو الحَىُّ ، أى الذى أحياه الله بالإيمان ، ومَن لم يَكُنْ قد أصابه النور المرشوش ، لم يؤمن برسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولم يتبعه وعارض وأنكر وهذا هو الميِّت ، أى الذى أماتَ اللهُ قلبه ، ولم يكن حيًّا بالإيمان ، وهو الذى أخبرَ اللهُ تعالى عن أهله بقوله : « وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » . وقال تعالى : « وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ » .

وإذا كان الأمر كذلك كان مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين من أنفُسِهِمْ ، إذ أنَّ نفوسهم قد تَنوَّرَت بالنور المرشوش فجاءهم بما تقرر وثبت وانطبع فى أنفسهم ، وانصبغت به واتصفت ، وحَمَلَتْ وعلِمتْ ، وَأَذعَنَتْ به واعتقدته ، فلمْ يَبْقَ عليها بعد الهبوط إلى هذا العالم ونِسْيانها ماثبت فيها إلاَّ أنْ يأتيها مُذَكِّرٌ يُذَكِّرُهَا فجاء الرسول مُذَكِّراً لها بما فيها فآمَنَتْ بربها ، وأجابت الداعِيَ إليه ، قال تعالى : « إنما أنت مُذَكِّرٌ لَسْتَ عليهم بمسيطرٍ إلاَّ مَنْ تَوَلى وكفَرَ فيعذبُهُ اللهُ العذابَ الأكْبَرَ إنَّ إلَيْنَا إيابَهمْ ثم إنَّ علَيْنا حِسَابَهمْ » .

ثم إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ، هو نور أبصار بصائر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بل نور بصائر المؤمنين وأبصارهم ، فهو صلى الله عليه وسلم ، كما جاء إلى الخَلْقِ رسولا من حيثُ الظاهرُ ، فقد أتاهم من حيثُ كونُهُ نورُ بصائِرِهم ، فإذا اهْتَدَوْا ظاهراً فإنما هو بهَدْيِهِ ، وإذا اهْتَدَوْا باطناً ، فإنما هو بإمدادِهِ ، عليه الصلاة والسلام .

ويُفْهَمُ أيضاً من قوله تعالى : « لقد جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » أنَّ اللهَ أرسلَ إليهم رسولا منهم يعرفونه ويعرفون نَسَبَهُ ، وكيف كانت نشأته بينهم ، إذ كانوا يُسَمُّونَهُ الأمين ، وكان مُوَقَّراً محترماً عندهم ، وكانوا يعترفون له بالصدق والأمانة ومكارم

الأخلاق ومحاسنها وأما قراءةُ لقد جاءكم رسولٌ من أنفَسِكمُ (بفتح الفاء) فإنه يفيدُ أن رسولَ الله عليه الصلاة والسلام أرسله الله من أشرف العرب وخيارهم ، وأرفعهم نسباً وأعلاهم حسباً .

وكان قومه وأسلافه رؤساء مكةَ والبيتِ الحرامِ والكعبةِ المُشَرَّفَةِ ، والعربُ يُجِلُّونَهُمْ وينظرون إليهم بعين الاحترام والوقار ، ومنهم عبد المطلب الذى كانت العرب تَهابُهُ وَتَصْدُرُ عن رأيه ويرجعون إليه ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم : (يُحْشَرُ جَدِّى عبد المطلب فى أُبَّهَةِ المُلوكِ) أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

فإذا كان هذا حالُه عليه الصلاة والسلام ، وحالُ قومه وأهلِه وعشيرته وأجدادِه مع إرساله إلى الخلقِ ، وهو أُمِّيٌّ لم يقرأ ولم يخُطَّ كتاباً بيده ، ولا تلقى العِلْمَ عَلَى أَحَدٍ ولا خالط العلماء ، بل نشأ بين أقوام جاهليةٍ قد استغرقوا فى الجهل ، وتربَّى يَتِيماً فى فقر ، وفى رعاية الغنم ، ولم تكن له قوة يصولُ بها على أعدائه من سلاحٍ ورجال ، ومع هذا كله أتى بالدين القيم ، والقرآن العظيم ، الذى أعجز بلغاء العرب وفصحاءهم مع تمكنهم ورسوخهم فى البلاغة والفصاحة ، إذ كانوا يقولون القصائد ويعلقونها على الكعبة ، ويسجدون لها لما اشتملت عليه من المعانى والفصاحة والبلاغة ، وقد أذْعَنَ كل فطاحلهم ، وخضعوا ولم يتيسر لهم إلا أن يؤمنوا به ، ويصدقوه لما تَيَقَّنُوهُ من أنه لا يكون فى طَوْقِ البشر أن يأتى

بمثلِهِ ، وقد أظهر الله على يديه صلى الله عليه وسلم من المعجزات مالا يتيسر حَصْرُه ، مما هو معلوم شائع مستفيض قد بلغ حد التواتر ، والتف حوله المؤمنون وأذاقهم الله حلاوة الإيمان ، وباعوا أرواحهم فى سبيل الله ، فأثابَهُمْ فَضْلاً وَجُوداً وإحساناً ونوراً وبرهاناً ، فأظهر الله الدين وأعز المسلمين ، وخذل الكافرين ودَخَلَت الناس فى دين الله أفواجاً ، وأظهر الله دينه على الدين كله ، ولم يزل الخير فى أمته صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة .

فإذا كان الرسول الذى أرسله الله إليهم من أنفسهم ، وعرفوا حالَه وحالَ قومِهِ وعشيرته وأهلِهِ كما مَرَّ ، ولم يكن له قوة وكان فقيراً ، وقد أتى بالدين القيم كما عَلِمْتَ ، فلا عذر لمن يُخالفه ، ولا يقال بعد ذلك إنه يُخْشَى منه أن يُعامل أمته بقسوة أو يأمرهم بما يضرهم ، بل ضرورةً يكون كالأبِ المُشْفِقِ الرحيم ، صلى الله عليه وسلم .

وإذا عَلِمْتَ أن رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كان على هذه الأوصاف ، فإنه يَعَزُّ عليه أن يَقَعُوا فى حرجٍ أو مكروهٍ أو مشقةٍ ، ولذلك وَرَدَ ما معناه (لا يُشاكُّ أحَدُ كُمْ بِشَوْكَةٍ إلاَّ وأنا واجِدٌ ألمها) فانظر شدةَ رأفته بأمتِهِ وإشفاقِهِ عليهم ، وأنه لا يُصابُ أحدُنا بِشَوْكَةٍ فى جسمه إلا وهو صلى الله عليه وسلم يتألم لها ، وَمَنْ تأمل أحواله وسِيَرَهُ عَلِمَ أنه كان متصفاً بالشفقةِ والرقةِ والرحمةِ والحنان على أقصى ما يكون من درجات الاعتدال والكمال ، فألفته

القلوب وأحبته ، حتى أنه صلى الله عليه وسلم صار عند أصحابه أعزّ من أرواحهم ومن أولادهم وأهلهم ومالهم ، فهو سيد الخلق على الإطلاق ، وما خلق اللهُ شيئاً من المكوناتِ إلا لأجله ومن نوره ، ولا شك أنه يكون عزيزاً عليه عَنَتُ المؤمنين ، ويَعِزُّ عليه أن يقعوا فى حرج أو مشقة ، ويكون حريصاً على وصول خير الدنيا والآخرة إليهم لشدة رأفته ورحمته بهم ، فمن تولى بعد ذلك لا شكّ فى أنه قد أعرض عن الهُدَى ، وكَفَرَ بنعمة سيده ، ولم يشكر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ولم يَعْرِفْ له فضلَه ، وأنكر الحقّ الواضحَ ، ولم يشكر الله على هذه النعم والمِنَنِ التى أسداها إليه ، وقد أمر الله نبيَّهُ إذا رآهم قد تولَّوْا ولم يمتثلوا ولم يذعنوا لما وَرَدَ عن الله ولم يفعلوا ما أمرهم به ، فلا يحزن عليهم ، ولا يلتفت إليهم ، ولا يضيق صدرُه ، وَلْيَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ ، أى أنى أكتفى بأن الله سبحانه هو كافٍ عبدَه ما أهَمَّهُ وهو الذى يتولى حسابهم ، وهو إن شاء هداهم وإن شاء عَذَّبَهُمْ ، ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « فاصْبِرْ كما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلْ » فإن الله تعالى قد لا يريدُ إهلاكَهُم ، أو أنه يُريد إيمانَهُمْ فى وقتٍ مُعَيَّن .

وإذا قال الرسولُ حَسْبِيَ اللهُ ، متيقناً بأن اللهَ كافيهِ شَرَّهُمْ ، وأنه تعالى يفعلُ ما يشاء فى خَلْقه ، وفوَّضَ الرسولُ أمرهُ لربِّه ، كان بذلك قد التجأ إلى حِمَى مَوْلاهُ ، وشَهِدَ أنه الفاعلُ المختارُ ،

وأنه العظيمُ الأعظمُ الذى لا يُغالَبُ ، ولا يُعْتَرَضُ عليه فى حكمه ، وأنه سبحانه ربُّ الخلقِ وهو مالكُ رقابهم فأدّاهُ ذلك إلى استغراقه فى عظمةِ سيِّدِه ، فنظر فى المخلوقات وارتقى فيها وكلما نَظَرَ إلى عالَمٍ من عوالم الأرض أو عوالم السماء رآه مَرْبُوباً ، وهو فى يده يُقَلِّبُهُ كيف شاء ، ولما ازداد فى رُقِيِّه ، لم يجد مخلوقاً أكبر من عرش الرحمن ، فرآه كغيره من الخلقِ فى قبضة سيده ، ورآه خاضعاً لأمره ، سامعاً مطيعاً ، فلذلك أمر الله نبيَّهُ عليه الصلاة والسلام بقوله : « فإنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ » .

ومن فوائد هذه الآية الكريمة أنه صلى الله عليه وسلم قال : (مَن قال حين يُصبح وحين يُمْسِى ، حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) سبع مرات ، كفاه الله ما أهمَّه من أمرِ الدُّنيا والآخرة ، وَرُوِىَ أن الحسنَ البصرىَّ رحمه الله تعالى قال : كان جماعة ممن يُقتدى بهم فى الدين يتخذون قراءةَ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم خلف كل صلاة مكتوبة ، وقالوا : بها نحفظ وبها نُرْزَق وقالوا ما نظنُّ ذلك إلا مِن قوله عليه توكلت ، وقد جاء ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

وعلى ذكر ما يقرأ عقب الفريضة ، نقول : رُوِىَ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ قال بعد كل صلاة مفروضة : سبحان من لاَ يَعْلَمُ قدره غَيْرُهُ ، ولا يبلغ الواصفون صفتَهُ ، أطال الله عمره ، وَأغناه عن خلقه أجمعين .

وَمِنْ ذلك قراءة الفاتحة وآية الكرسى ، وشهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، وَقل اللهم مالك الملك إلى بغير حساب ، فقد ذكر الإمام الواحدى فى تفسير الوسيط حديثاً مُسْنَدًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (هُنَّ مُشْفِعَاتٌ ليس بينهن وبين الله حجاب) .

ولإمورِ الدنيا والآخرة يقال عند دخول الصباح ، وعند دخول المساء حسبى الله لدنياى ، حسبى الله لآخرتى ، حسبى الله لما أهَمَّنِى ، حسبى الله القوى لِمَنْ بَغَى عَلَىَّ ، حسبى الله الشديد لِمَنْ كادنى بسوء ، حسبى الله الرحيم عند الموت ، حسبى الله الرءوف عند المسألة فى القبر ، حسبى الله الكريم عند الحساب ، حسبى الله اللطيف عند الميزان ، حسبى الله القدير عند الصراط ، حسبى الله الذى لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

وجاء رجل إلى أبى الدرداء رضى الله عنه فقال له : إن بيتَكَ قد حُرِق ، فقال : ما كان الله ليفعلَ ذلك ، فقال : جاءت النار إلى

قرْبِ منزلك فَطُفِئَتْ ، فلم ذلك ؟ قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من قال هذه الكلمات حين يُمسى لم تصبه مصيبة إلى الصباح ، ومن قالها حين يُصبح لم تصبه مصيبة إلى المساء ، وهى هذه الكلمات : بسم الله الرحمن الرحيم ، باسم الله أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، أشهد أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء عِلْماً وأحْصَى كلَّ شىء عَدَداً ، اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل ذى شر ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم وأنت على كل شىء حفيظ إن ولي الله الذى نَزَّلَ الكتاب وهو يتولى الصالحين فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

وقوله تعالى : وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك إلى قوله نفوراً ، وقوله : فإن تولوا فقل حسبى الله إلى آخر السورة ، هاتان الآيتان لطرد المَرَدَةِ من الجن والشياطين وتخويفهم ، وإذا كُتِبَتْ للخائف الذى تَتَخَيَّلُ له الخيالات الفاسدة وعُلقتْ عليه : ذهبت منه بإذن الله تعالى .

وَرُوِىَ أن من قال فى كل يوم سبع مرات : فإن تولوا فقل

حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، كفاه الله ما أهمه من آخرته ومن دنياه ، فقف على هذا واعتبر ، فإن كثيراً من الأذكار متوقفة على الصدق والحضور مع إخلاص النية ، وقد عمّت الرحمة فى هذا الذكر دون سائر الأذكار ، وَحَصَلَت به الكفاية من الهموم الدنيوية والأخروية لمن وفقه الله ، وإن لم يكن له قدم فى التوكل فهذه نعمة لا يُقَدَّرُ قدرُها ، ولا يُقَامُ بواجب شكرها ، فلله الحمد والشكر ظاهراً وباطناً أوّلاً وَآخراً .

ومن أوراد السادة الشاذلية المشهورة عندهم — حسبنا الله ونعم الوكيل ، وهى عندهم السيفُ القاطع الذى يحاربون به الأعداء ويستجلبون به الخيرات ، ولذلك وضع الإمام الشاذلى فيها مؤلفاً خاصاً ، سماه بالسر الجليل فى خواص حسبنا الله ونعم الوكيل ، فارجع إليه ترى العجب العجاب ، وتشهد بحراً من الأسرار لا ساحل له ، والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الكريم الأستاذ سيف النصر محمد عشرى

قال تعالى : « تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

المُلك هو ما يُملك وهل ما يملك هو الأعيان المملوكة أو غيرها ؟

وإذا كانت الأعيان هى المُلك ، فهل معنى أن الله يؤتى عبده ملكا أى أعياناً ، ومعنى نزعها منه على أن الأعيان لم تنتقل من مكانها ، ولم تكن محمولة للعبد .

وإيضاحه : إذا أعطى الله عبداً من عبيده بلداً أو إقليما فهذا هو المُلك الذى آتاه الله عبده ، أو نزعه منه .

وإذا كان الأمر كذلك فهل البلد أُعْطِىَ للعبد فى يده ، أو حمله العبد ، أو نزعه منه بمعنى أن الله نزع البلد أو الإقليم ، وهما لا ينتقلان هذا لا يعقل ؟

فإذن يقال : إن الملك هو نسبة مِلْك ذلك للعبد ؛ حتى يأخذ من

أرضه ثمراً أو رزقاً أو مالا يصرفه فى تحصيل منافعه ، بحيث لا يعارضه أحد فى هذه النسبة .

وإذا كان كذلك فهل الحق مالك المُلك ، بمعنى نسبة ذلك للحق أو أن الله مالك الملك ، بمعنى غير هذا المعنى ، الذى يسند فيه الملك للعبد .

وهل العز والذل أثران فى النفس مقدوران للحق ، أو العز والذل ليس لهما من ذاتهما إلا العدم المحض ، وإنما كان قيامهما بربهما ، وإذا قاما بربهما فهل إسنادهما للعبد مجازٌ أو حقيقة ، لا يقال إن الحق يتصف بالذل البتة ؛ لأن الحق سبحانه منزه عما لا يليق بقدسه الأعلى ، وهو سبحانه العلى العزيز القاهر . والذل وصف للعبد ؛ إذْ هو مقهور تحت سطوة قهر سيده ، وأما العز فهو وصف مشترك يطلق على الحق بالأصالة ، وعلى الخلق بالتبعية ، ثم إن التبعية تنقسم إلى قسمين :

تبعية على الوجه الأحق كما قال تعالى : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » .

وتبعية على غير الوجه الأحق وهى أن يدعى العبد صفات سيده من غير سلطان من ربه ولا إذن منه ، فالعز لله تعالى بالأصالة ، وهذا الذى ادَّعى العز على غير الوجه الأحق ، عزيز بالتبعية لسيده فى هذا

الوصف ، فإن عزه ليس بنفسه وإنما هو بربه ، ولكنه استعمله فى غير موضعه ، ولم يقرّ بأن العز كله لله ، وأنه له بالتبعية ، فهذه التبعية حاصلة ، وإنْ لم يقرّ بها العبد .

وإذا كان الذل بل كل الصفات لله خَلْقاً وإيجاداً ، وللعبد كسباً واستناداً ، فهل ذلك الكسب والاستناد مجاز أو حقيقة ، بالضرورة هو مجاز لا حقيقة ، ولكن هل يتصف الحق بما خلق ، فإذا خلق الشبعَ يُقالُ شبعان ، أو خلق الخوفَ ، يُقال خائف ، أو خلق الذلَّ ، يُقالُ ذليل .

لا يصح ذلك ، بل الحق لا يتصف بما خلق ، ولكن الكلام هنا ، لا من حيث كون العز والذل أثرين مخلوقين ، بل من حيث كونهما فعلين لله تعالى .

وهل أفعاله من حيث صدورها عنه ، لا من حيث منفعلاتها صفات له سبحانه ، أو محدثة فالرَّزْق (بفتح الراء) من حيث كونه فعلا لله تعالى ، يتصف به الحق ، ولذلك كان من أسمائه الرازق ، ومن حيث كونه مخلوقاً يكون وصفاً للعبد ، ويُسَمَّى العبد مرزوقاً ، وما وصل إليه يسمَّى رِزقاً (بكسر الراء) فالرازق يتصف بصفة الرزق القديمة ، والمرزوق يتصف بالرزق الحادثة ، فصفة الرزق متضايفة ، لها اعتباران : أحدهما قديم ، وهو صفة لله ، والثانى حادث وهو صفة للعبد .

وكما يقال فى الرزق ، يقال فى الإذْلال (بالذال المعجمة) فإنه من حيث الحق صفة قديمة ، ويسمى الحقُّ مُذِلاً ، وصفة الإذلال لله قديمة ومن حيث العبد : يتصف العبد بالإذلال ، وتكون صفة حادثة ، وهى بمعنى الذل ، ثم إنَّ ذل العبد هو اتصافه بما يظهر عليه من فيض الإذلال القديم .

وهل الفائض من الإذلال القديم هو شىء غيره أو هو هو ؟ فإن كان الثانى لزم أنْ يكون المؤثرعينَ أثره وهو باطل ، فبقى الأول وعليه فهل العبد يظهر بالذل ، بمعنى أنَّ الله تجلى بالإذلال ، أىْ بالصفة القديمة فوُجِد الذل مطاوعا لتجلى الإذلال ، أوْ أنَّ الذل يحتاج إلى تجلٍّ يقومه ، فلا يكون من باب المطاوعة بل كان بالله ، وهل يوجد شىء عندما يسمع أمر الحق له فتكون مطاوعته بلا مقوم له أوْ أنَّ هناك تجليا به الأمر ، وتجليا به الوجود ، لا بمعنى أنَّ المخلوق وجد طاعة ومطاوعة للأمر .

وإذا كان الذل محتاجاً إلى من يُقَوِّمُه لا بمعنى مَنْ يأمره ، فالمقوم له هل هو يُظهر الذل بنفس الموجد أو بذات الذل .

والثانى يقتضى الدَّور فبطل ، وعلى الأول هل الظاهر عين المَظْهَر (بفتح الميم) ويُقالُ هل المظهر موجود لذاته بذاته ، وقد تقدَّم بُطلانه ، وهل هو موجود بذاته لغيره وفيه أنه من باب المطاوعة

وهو ممنوع ؛ إذ المطاوعة تقتضى فعلا المطاوع ، وهل هو موجود بغيره لغيره .

ويقال : هل ذلك الغير حادث ، وفيه القول باستناد الحوادث إلى حوادث لا أول لها وهو التسلسل .

وهل ذلك الغير قديم ، ويتعين أنه هو الله ؛ إذْ لاقديم سواه ، ويقال إذا كان المَظهَر (بفتح الميم) ، ليس موجوداً بذاته لذاته ، ولا بذاته لغيره ، ولا بغيره لغير حادث ، وإنما هو بغير لغير قديم ، وهو الحق تعالى .

فهل غيرية المَظهر (بفتح الميم) المُظهِر (اسم فاعل) بمعنى غيرية التميز ، مع عدمها فى الحقيقة أو هى غيرية وجود وحقيقة .

وإذا كان الثانى ، فهل يقتضى الوجود بذاته لذاته ، أو بذاته لغيره ، أو بغيره لغير حادث .

إذا علمت ذلك ، فانظر فى الذل هل هو قائم بذاته لذاته ، أو بذاته لغيره أو بغيره لغير حادث .

وهل رتبة الوجود للذل كانت عدماً ، ثم صارت حقيقة ، أو كانت عدماً مقدراً ، وهل العدم المقدر وجودى أو هو باق ، على عدمه ، وإنْ كان الثانى ، فهل تقديره لم يخرجه عن عدميته ، وَإنْ أخرجه فهل أخرجه بنقص العدم ، وفيه توقف الشىء على نفسه وقد تقدم ،

وهل التقدير قديم وهو واجب ، والقديم له دخل فى تقويم العدم المحض حتى يكون له وجود ، وإن كان كذلك فهل يكون مركباً من قديم وحادث وهل حدوث العدم المقدر باعتبار إمكانه ، أو باعتبار التقدير ، وهل حدوثه فى الإمكان تقتضى أولية له ، وهل الأولية بحسبما نعتبره عندنا ، أو عند الحق ، وهل تغيرات الحوادث عند الحق يراها قديمة ، أو يراها حادثة ، وإنْ كان الثانى فهل الحدوث عنده مرتبة أو حقيقة .

فإذا حققت هذا كله عرفت ما نشير إليه ، ولست أقصد بهذا أنْ أقرر أنَّ الحق تعالى يتصف بنقص أو بصفات الحوادث أو يكون عين خلقه ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ ولكنى أريد أن تعرف أن الحق حق ، وأن الخلق خلق ، ولكن الخلق لذاتهم لم يمكنهم أن يقوموا من أنفسهم ، بل الحق سبحانه هو الذى أكسبهم الوجود ، لا من حوادث عنده أخذ منها الحدوث ، وأعطاه لمن خلقه ، فإنَّ ذلك يقتضى التسلسل والاحتياج .

وإنما الحق تعالى تجلى بالإيجاد على ما هو منكشف له أزلا وأبداً من غير زمان ولا مكان ولا كيفية ، فَوُجِدَ الخلق بتجل آخر ، بمعنى أنَّ ما كان فى علمه سمع أمره ، فظهر بإظهار الله له ، لا بنفسه .

واعلم يا أستاذ سيف يابن عشرى أنَّ هذا المقام يحتاج إلى تحقيق

عميق عويص لا يسبر غوره إلا الشجاع المقارع ، فإن كنتَ ممن شرح الله صدره ، وفهمتَ الإشارة فيما سطرته آنفاً ، وانقدح فى قلبك من الإيمان نور تُفَرِّقُ به بين الحق والباطل وعرفتَ أنَّ الله هو الحق وأن ما سواه باطل لذاته لا باطل بريه انفتح لك باب عظيم فى فهم ما نحن بصدده ، وإن يسّر الله تعالى ووسع الوقت ووفقنا إلى تحقيق هـذا المقام تحقيقاً يزيل إبهامه وغموضه ، عرفتَ الحق جلياً واضحاً كالشمس ليس دونها سحاب ، فلا يكون هناك مجال لشياطين الشكوك ، ولا أبالسة الوهم ، ويكفى هذا الكلام فى هـذا المقام ، ولنرجع إلى الكلام على قوله تعالى : « تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ » الآية

فنقول : إذا كان الله تعالى هو مالك المُلْك ولا مالك سواه ، فهل إذا أعطى عبده الملك يُسَمَّى مالكا أو لا ، نعم يُسَمَّى مالكا باعتبار أنَّ الله تعالى ملكه ذلك وسماه مالكا ، فهو مالك مجازاً لا حقيقة ؛ لأنَّ العبد وما يملكه ملك لله تعالى وفى قبضته ، وإذن لا يقال : إن الملك يكون تحت تصرف مالكين اثنين ، أو جمع من الملاك .

ولقد فهم قوم أنَّ المراد بالملك النُبوة ، وعليه يكون معنى « تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ » تعطى النبوة من تشاء ، ولكن يلزم عليه جواز نزع النبوة لقوله تعالى : « وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ » .

وقال قوم : إن الملك هو الإيمان فيكون المعنى تُعطى الإيمان وتَنْزع الإيمان مِمَّن تَشاء .

وقد قيل : إن المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أمر بحفر الخندق واشتغل أصحابه بحفره اعترضتهم صخرة ، ولم تعمل فيها المعاول ، فأخبروا النبي — صلى الله عليه وسلم — بذلك ، فأخذ المعول من سلمان الفارسي — رضي الله عنه — وضرب بها الصخرة ثلاث ضربات فأضاء نور عظيم في كل ضربة ، وكَبَّرَ أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكان لتكبيرهم ضجة عظيمة ، وأخبر عليه الصلاة والسلام بأنه كُشِفَ له عندما أضاء النور في كل مرة ، أنه رأى مُلك فارس ومُلك الروم ، وأخبر أصحابه عليه الصلاة والسلام بأنهم سيغلبون الروم وفارس ، وأنهم سيملكونهم ، وتكلم في ذلك كثير من أهل الكفر والمنافقين وقالوا انظروا إلى نبيكم يزعم أنه يرى ملك فارس وقيصر وهو بالحجاز ، ويزعم أنكم ستغلبون كسرى وقيصر ، وهذا لا يكون أبداً وأنتم تحفرون الخندق من الخوف .

فأنزل الله تعالى هذه الآية : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ » الآية .

وأما قوله تعالى : « بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فهو يفيد أن الله تعالى لا يضاف إليه شر ، وإن كان هو خالق الشر ، ولا يلزم من كون الحق خالقاً للشر أن يضاف إليه الشر ، فإن الله سبحانه لا يفعل شيئاً عبثاً ، بل هو لحكمة يعلمها هو ، وإن علمها من علمها وجهلها مَنْ جهلها مِن خلقه ، وإذا كان كل شيء عنده بحكمة وهو لا يفعل عبثاً ولا لهواً ولا لعباً ، ولا يقصد ظلماً ، ففعله كله خير ، وإذن يكون إذلاله لبعض خلقه خيراً ، يراه الحق ولا يلزم أن يعرف ذلك كل الخلق ، وكذلك عزه كله خير ، فما أذل وما أعز ظلما ولا لغير حكمة .

ولقد قال سيدى على بن وفا رضى الله عنه :

سمعتُ الله فى سرى يقول ... أنا الله وحـدى لا أزول
وحيث الـكل منى لا قبيح ... وقبح القبح من حيثى جميل

وقال سيدى عبد الـكريم الجيلى رضى الله عنه :

وكل قبيح إن نسبت لفعـله ... أتتك المعانى الحسن فيه تسارع
يكمل نقصـان القبيح جماله ... فما ثم نقصـان وما ثم باشـع

وإذا قيل إنّ الله تعـالى خلق الـكفر ، ولا يُقال بأن الـكفر مليح عند الحق ، ولا عند الخلق ، فـكيف يفهم معنى قولك : إنّ كل ما فعله الحق مليح ، ومعلوم أنّ الـكفر مما يخلقه الله تعالى .

فالجواب : إن هـذه المسألة من المسائل العويصة التى انقسمت

فيها الآراء وتشعبت فيها المذاهب ، فقال بعض : إنّ الله تعالى خالق العبد ، وخالق أفعاله الاختيارية التى يفعلها مختاراً ، وأمّا مالم يكن فيه مختاراً فليس هو من أفعال العبد ، وإنما هو فعل الله تعالى خلقه بقطع النظر عن اختيار العبد ، وعلى ذلك تكون الأفعال كلها سواء كانت اختيارية أو اضطرارية مخلوقة لله تعالى ، واستدلوا لذلك بكثير من الآيات الواردة فى القرآن كقوله تعالى : « وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » وقوله تعالى : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » وقوله تعالى : « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ » مع قول الله قبل ذلك « قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ » وغير ذلك من الآيات وما ورد عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه خرج على أصحابه وفى يده اليمنى كتاب وقال : (هَذَا كِتَابٌ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وأسماء قبائلهم وعشائرهم، وفى يده اليسرى كتاب وقال هذا كتابٌ فيه أسماء أهل النار وأسماء قبائلهم وعشائرهم فقال الأصحاب إذن نتكل يارسول الله ، فقال لاَ ، بَل اعملوا ، فكل ميسر لما خلِقَ لَهُ)ولكنهم لما رأوا أن العبد لابد له من اختيار فى كل أفعاله الاختيارية قالوا : إن للعبد كسباً هو مدار التكليف ، ولكن هذا الكسب لايُؤَثر بالكلية فى أفعال العبد ، وقالوا إن للعبد قدرة حادثة لا تؤثر أيضاً فى شىء ما مِنْ أفعاله ، وقالوا : إنّ الفعل إذا خلق مقارناً للقدرة الحادثة يُنسَبُ إليها من باب نسبة السبب إلى

المسبب ، فهى سبب وسنة أجراها الحق فى خلقه ، والله سبحانه يخلق القطع عند مرور السكين على الشىء المقطوع ، فينسب ذلك إلى السكين وكالإحراق للنار ، وقالوا : إن الله تعالى إذا أراد أن لا يحصل قطع عند مرور السكين ، ولا إحراق عند مجاورة النار لجاز حصوله ، واستشهدوا على ذلك بأن السكين لم تقطع ولم تذبح إسماعيل عليه السلام ، وأن النار لم تحرق إبراهيم عليه السلام ، ولهم على ذلك دليل عقلى هو الذى اضطرهم إلى القول بأن الله تعالى خالق العبد وخالق جميع أفعاله ؛ لأن الدليل العقلى عندهم من أقوى الأدلة والبراهين ، وهو أن الله تعالى إذا أودع فى العبد قوة يقتدر بها على خلق أفعاله الاختيارية فإن هذه القوة إما أن تتحرك بنفسها لخلق الفعل ، وإما أن تحتاج إلى محرك آخر يحركها ، والأول باطل ، والثانى إن كان المحرك الذى يحركها حادثاً فهو مُفْتَضٍ للتسلسل وهو باطل ، وإن كان قديماً فهو الله ، فإذن لابد للقوة المودعة من محرك يحركها فى طلب الفعل الاختيارى ويتعين أنه الله تعالى ، ولهم دليل عقلى آخر ، وهو أن الله تعالى تكون قدرته محدودة ؛ لأن خلق الأفعال الاختيارية إذا لم يكن لها ، بل للقوة المودعة ، فقد تحددت كل قدرة من القدرتين ، والتحديد نقص وعجز ، وهما مستحيلان فى حق الله تعالى ، فوجب أن تكون قدرة الله مطلقة ليس لها حد ، فتكون هى الخالقة لجميع الأفعال سواء كانت اختيارية أو اضطرارية وكما يقال فى القدرة والقوة المودعة

يقال فى الإرادة فإذا كان للحق تعالى قوة فى العبد مودعة بها يريد ويختار ، فلابد لها من محرك قديم يحركها إلى طلب ماتخصصه وهو الله تعالى ، وقس على ذلك صفة العلم وبقية صفات العبد إذ كلها تقتضى محرك يحركها إلى ماتقتضيه ، وقد وجب أنه الله تعالى .

وقال بعض : إنّ العبد إذا لم يكن خُلق مختاراً ، وأودع الله فيه قوة يقتدر بها على التصرف فى أحواله كلها ، ويمكنه بها أنْ يخلق أفعال نفسه الاختيارية لكان مجبوراً جبراً محضاً ، فلا تكون له إرادة ولا قوة ولا حولُ ولا علم ، ولا غير ذلك من الصفات وإذا كان كذلك ، فكيف كلفه الله تعالى ، وأمره ونهاه ، ووعده بالجنة ، وتوعده بالنار ، ووصفه بالطاعة والعصيان ، والكفر والإيمان ، وما فائدة إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وهل يجوز أنْ يُكلف الله إنساناً كالحجر لايعقل ولا يفعل ولايريد ، بل هو كالريشة المعلقة فى الهواء ، واستدلوا لذلك بأنّ الله تعالى ، قد أثبت الاختيار لخلقه فى كلامه القديم المنزل على رسوله الطاهر الأمين ، بل كل كلامِ الله وكتبه وشرائعه وسنن الأنبياء تثبت الاختيار فمن ذلك قوله تعالى :

« لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ » .

وقوله تعالى : « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » .

وأما قوله تعالى : « مَاأَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ

مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ » . فإن الله تعالى لا يفعل إلا حسناً ، ولا يريد للعبد إلا خيراً ، فإذا أعطى العبد شيئاً من كرمه وإحسانه ، فإنه لا يعطيه إلا خيراً ، كأنْ يُعْطِيهِ صحة وعافية ومالا وأولاداً ، ويدفع عنه السوء ويطيل عمره ويعمر قلبه ، ولكن العبد إذا ظلم نفسه وفعل ما لا يرضى ربه ، واستوجب بذلك سخطه ، فإن الحق سبحانه ينتقم منه ، بما يقتضيه عدله ، فيمرضه ويسقمه ، وإذا وجدَ الأعداء تسلطوا عليه ، فإنه لا يدفعهم عنه ، بدليل قوله تعالى : « وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

وقالوا إنَّ الله تعالى خلق قوة وأودعها فى العبد ، وتركه مختاراً بعد أنْ عرّفه الحق وطريقه ، والباطل وطريقه ، قال تعالى :

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » : (أى دنسها) بالمخالفات من المعاصى وقالوا إنَّ الله تعالى فى قدرته أن يمنع هذه القوة المودعة من الحركة فلا تفعل شيئاً ولا تريد شيئاً ولا تعلم شيئاً ولا تعقله ، ولكنه سبحانه لما كان صبوراً حليماً أخرهم إلى يوم يقام فيه الميزان على جميع الخلق ، ويناقش كل منهم الحساب ، ويؤدى ماعليه ، ويستوفى ماله ، فهو سبحانه أعطاه القوة وأقدره على الفعل ، وفى قدرته أن يبطل قدرة العبد ويسلبها منه ، ولكنه لم يفعل بل أمهله لعله يتوب إلى ربه ،

ويرجع إليه ، فيفرح به ربه عند رجوعه وإنابته ، وإنْ مات مُصراً على كبائره كان أمره مفوضاً لربه ، وبعد أن يحاسبه إمَّا أنْ يأمر به إلى الجنة ، أو إلى النار ، فيلقى جزاء ماجنته يداه فى نار جهنم مذموماً مدحوراً أو فى جنة يعطى فيها غرفاً وحوراً وقصوراً ، ويلبس فيها سندساً واستبرقا وحريراً ، وقالوا إننا لم ندع أنَّ الله تعالى أودع فى العبد قوة لها الاستقلال التام عن قدرة الله تعالى ، وإنما هى قدرة يمدها الله بالمدد لتصلح للجهتين ، فسلكت إما ذات اليمين ، وإما ذات الشمال ، فالمدد الذى يُمد به صالح للخير والشر ، بل لا يعطى الحق عبده شراً أبداً ، فإنه جعل له يدين ، وَأمره أنْ يستعملهما فى الخير ، وعرفه طريقه ، ونهاه عن سلوك طريق الشر .

فإذا استعمل يديه فى غير ماخلقتا له كضرب أحد بغير حق ، أوْ اغتصاب مال أوْ مس محرم كان هو الذى جعل اليدين اللتين كانتا نعمتين مِنَ الله تعالى له ، وكانتا خيراً له من أن لا يكون له يدان فيكون ناقصاً لا يجد مايتناول به مايفعه ولا يدفع به مايضره ، وقس على ذلك بقية الأعضاء والعقل وقواه الباطنية الروحانية ، وقالوا كيف يغضب الله على عبد ظهر عليه الكفر ويعده عدواً له لم يطع الله ورسوله ، والعبد لم يفعل شيئاً من ذلك وإنما الذى فعله الحق تعالى ، وكيف يعقل أنْ يخلق الحق أفعالاً وينسبها إلى عبد لا يفعل ولاَ يعقل وليس له قوة على شىء من ذلك ، وكيف يعذبه الحق

معذنباً وهو غير فاعل لشيء منْ أفعاله ، وادعوا أنَّ من قال بذلك فقد جوز على الله المحال وقالوا إنما نؤمن بأنَّ قدرة العبد مملوكة للحق بل كل ما في الوجود مملوك له وفي قبضته ، ولكن الحق ، لما خلق الإنسان مختاراً تركه وأمهله إلى يوم القيامة ، وهو يستعمل ما أعطاه الله من النعمة والخير ، في غير ما خُلِقَ له فكان الشر من عند العبد لا من عند الله تعالى .

وقال بعضهم : إنَّ العبد مجبور على كل فعل والله تعالى هو الخالق لجميع أفعال العباد من خير وشر ، فالإنسان بل كل مخلوق كالريشة المعلقة في مهب الهواء يذهب بها الريح حيث ذهب وإنَّ العبد ليس له قوة ولا اختيار ، وكل الأمور تجرى بقضاء الله وقدره ، والحقُّ قسم الخلق قسمين : فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، وقال الحق : هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى ، وكان هذا في عالم الذر عندما كانوا في صلب آدم عليه السلام وأخرجهم الحق من ظهره كهيئة الذر وقسمهم قسمين : قسم إلى الجنة ، وقسم إلى النار ، وأين كانت اختياراتهم وأعمالهم ، بل فعل ما أراد لا لعلة ولا لغرض ، ولا يتوقف حكمه على مخلوق ، ولا راد لحكمه : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » والمالك يتصرف في ملكه كيفما شاء من غير منازع له ولا معارض ولا يكون بذلك ظالماً إذ لم يتصرف في ملك غيره ، ولا يتوجه عليه لِمَ ولا كيف ؛ لأن أفعاله وأحكامه لا تعلل بل أمره كماله وكماله وصفه ، فما فعل غير ما اقتضته

إرادته وسبق به علمه من غير افتتاح ولا أولية ولا آخرية ولا كيفية ولا معلولية لحكمته ؛ إذ الحكمة باعث لاقتضاء الإرادة وتخصيصها ، وذلك مُفضٍ إلى قدم الباعث وهل هو وصف لله ، وفيه علية صفة ومعلولية أخرى أو صفة لغيره ، فيكون سوى الحق ، ويلزم عليه أنَّ ثمة موجوداً قديماً غيره ، ويلزم أيضاً أنْ يؤثر ذلك الغير القديم في صفات الحق ، لأنه باعث للإرادة على تخصيص الممكن . ؟

واعلم أنَّ هذه الطائفة أُطلق على أهلها الجبْرية بسكون الموحدة ، نسبة إلى الجبر المحض ، وهو قوله : إنَّ العبد مجبورٌ على أفعاله ، وإنَّ الفعل كله لله تعالى ، وليس للعبد اختيار ولا كسب ، وإن ما ورد في الشرع من قبيل الأمر والنهى والوعد والوعيد ، والزجر والإرهاب والنذارة والتبشير إنما هو لبيان ما أراده الله بالعبد من خير أو شر ليس إلا ، واستدلوا لذلك بأن كل ما سوى الله مخلوق ، ومن ذلك الأفعال الاختيارية أو الاضطرارية ، وأما الطائفة التى قال أهلها بأن العبد يخلق أفعاله الاختيارية يسمون قدرية نسبة إلى إنكار أن كل شيء بقضاء الله وقدره ، وأما الطائفة التى قالت بأن الله خلق العبد وخلق أفعاله الاختيارية ، ولكنه خلق للعبد اختياراً لا يؤثر — سموه كسباً — وقدرة حادثة لا تؤثر بل يخلق الله الفعل مقارناً لها وينسبه إليها ، فهذه الطائفة يسمى أهلها أهل السنة ، وعليها جمهور العلماء من أهل الكلام ، وقال أهلها : إنهم قد توسطوا بمذهبهم بين

الجبر والاختيار فلم ينفوا الجبر مطلقاً ولا الاختيار مطلقاً ، بل أخذوا بطرفيهما اعتدالا من غير ميل إلى تفريط أوْ إفراط ، وقد عارضهم أهل الطائفتين اللتين قد خالفتاها ، وقالوا إنَّ إثبات طرف الجبر ينافى إثبات طرف الاختيار إذهما لا يجتمعان ولا يرتفعان ، فمن جمع بينهما فقد جمع بين النقيضين .

وقال بعض محققى أهل السنة : إن العبد مجبور فى قالب مختار يعنى بذلك أنَّ حقيقته الجبر وظاهره الاختيار ، وهذا عند مخالفى مذهب أهل السنة غير مسلم لأن الاختيار القالبى الظاهرى لا يقدح فى حقيقة الأمر ولا يرفعها ، وكل طائفة من الطوائف الثلاث يدعى أهلها أنهم أهل الحق وأهل الكتاب والسنة ، ويعدون مخالفيهم ممن زاغ عن السنة وخرج عن سنن المحجة .

إذْ علمت ذلك نقول : إذا كان الحق تعالى لا يفعل إلا خيراً وأن كل أفعاله على وجه السداد ولا يخلو فعل من أفعاله من حكمة بالغة ، فهل هو سبحانه خالق الكفر ويكون من الله تعالى مليحاً ، ولا قائل بأن الكفر مليح أو خلقه ولا يكون مليحاً وعليه يكون الحق قد خلق قبيحاً ؟ وقد تقدم أنه لا يضاف إليه نقص فى أفعاله — جل شأنه — أو يقال على مذهب القدرية : إن الله أودع فى العبد قوة يخلق بها أفعال نفسه الاختيارية ، والعبد باختياره خلق الكفر بالقوة المودعة فيه ، أو يقال : إن العبد مجبور بالجبر المحض ولا اختيار

له ، والله تعالى خلق له الكفر لا لعلة ، بل تنزيهاً لإرادته وقدرته وصفاته عن أن تكون معلولة بحكمة سابقة أو لاحقة ، ويكون كل ما صدر عنه مليحاً ، لأنه لم يتصرف فى ملك غيره ، وهو سبحانه لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون ، والذى تميل إليه النفس هو ما كان عليه السلف الصالح وصدر هذه الأمة المباركة ، وهو أن الله تعالى خالق لجميع أفعال العباد ، وأنهم هم وأفعالهم وباطنهم وظاهرهم فى ملك الله وفى قبضته لا يخرج عن إرادته ومشيئته شىء من الخلق من صغير ولا كبير ولا يملك أحد لنفسه ضراً ولا نفعاً ، وَأَنَّ كلا ميسر لما خلق له ، ولكن الله تعالى يؤاخذ العباد بما جعله لهم من الاختيار الذى نشاهده بأعيننا ، ويتكرر أمامنا كل يوم من الخلق مرات كثيرة ، وأننا وإنْ كنا متحققين من أنَّ الله تعالى هو خالق كل شىء ، ولكننا لما كنا نرى العبد له أفعال اختيارية وأفعال اضطرارية ولا بد من التفريق بين حركة المختار وحركة المرتعش ، وكان السلف لا يخوضون فى ذلك بعقولهم ، بل يقولون إنَّ هذا هو سر القدر ، وهو طريق مظلم لا يجوز سلوكه ، وكانوا يرون البحث فى ذلك من أعظم الخطر ، وأنَّ عقول البشر تقصر عن درك مثل هذا ، وأنَّه من المتشابه فى الدين الذى لا يخوض فيه إلا مَنْ عنده زيغ ؛ وَمَنْ لم يكن عنده زيغ أدى به إلى الزيغ ؛ قال تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ

تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ » .

وعلى ذلك درج السلف الصالح حتى أنهم كانوا يهجرون مَنْ يتكلم فى سر القدر ، ويرون الكلام فيه بدعة ، ويستدلون له بقوله صلى الله عليه وسلم : (إذا ذكر القدر فاسكتوا وإذا ذكر أصحابى فاسكتوا) أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

ولا زال الأمر على ذلك حتى جاء أقوام خاضوا فيه بعقولهم ، وتحكموا فيه بأهوائهم فوقع غالبهم فى ضلال عظيم ، وافتروا على الله الكذب ، وقالوا فى الدين بالرأى وتفرقوا شيعاً ومذاهب ، واستمد كثير منهم آراءهم من آراء الفلاسفة ، وبنوا مذاهبهم على قواعد مذاهب الفلاسفة ، بل عبروا باصطلاحاتهم ، فوقع ما كان يتوقعه السلف الصالح ، وكانوا يخافون وكانوا يرون السلامة فى السكوت على مالم يحط به الإنسان خبرا .

والعبد لو كان فيه قوة مودعة يقتدر بها على خلق أفعاله الاختيارية لكانت محتاجة إلى محرك يحركها إلى طلب الفعل كما مر ، وهو الله تعالى ، وإذن فلا يكون لها تأثير كما مر قبل ذلك .

ثم إنَّ هذه القوة ، إمَّا أن تكون مخلوقة ، وفيها صلاحية للخير وصلاحية للشر أولا ، فإن كان الثانى فقد سقطت وبقى الأول ، وعليه

يقال هل صلاحيتها للخير عين صلاحيتها للشر ويلزم عليه عدم التمييز فلا بد من صلاحية للخير تخالف الصلاحية للشر ، وإذا كان الحق قد أودع فيها الصلاحية للشر فذلك هو عين إعطاء قوة الشر خلقاً وإيجاداً وللعبد كسباً واستناداً ، فبطلت القوة المودعة التى تخلق الأفعال الاختيارية ، وبقى الكسب والاختيار للعبد ، والخلق والإيجاد للحق .

ولنا دليل آخر ، وهو أنَّ القوة المودعة التى تخلق الأفعال الاختيارية ، هل يمد الحق بها عبده ، وهو يعلم أنه يصرفها فى الشر ، ومن أعطى إنساناً شيئاً ، وهو يعلم أنه سيقتل به إنساناً آخر فقد أعانه على القتل ، ويكون شريكا له فى الذنب ، ولذا كان الأمر كذلك ، فما دام الحق أعطاه قوة ، وهو يعلم أنه سيصرفها فى الشر فقد أمده بقوة الشر خلقاً وإيجاداً وهى للعبد كسباً واستناداً ، وكذلك يقال إنه سبحانه ، يمد عبده بالإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام وهو يعلم أنه سيصرف ذلك فى الشر ، وبذلك بطلت القوة المودعة المؤثرة فى خلق الأفعال الاختيارية .

ولنا دليل آخر وهو أن القوة المودعة إذا انصرفت إلى فعل الشر وكانت سائرة فيه متلبسة به ، وقصرت فى هذا الشر وأمدها الحق بالزيادة كان الإمداد زيادة فى الشر الواقع من العبد ، وهو لله خلقاً وإيجاداً ، وللعبد كسباً واستناداً ، فالحق يمد لها ويمسكها ومقومها

فى حال تلبسها بالشر ؛ إذْ لا فاعل ولا موجود سواه ، فبطل القول بالقوة المودعة المؤثرة بالكلية .

إذَا عرفت ذلك فقد تلاشى قول مَنْ يقول بالقوة المودعة ، وصار هباء منثوراً واتضح الحق ظاهراً ، والحمد لله على ذلك .

وأما قوله تعالى : « إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » فيفهم منه أن الله تعالى سبق علمه بالموجودات كلها علويها وسفليها قبل إيجادها ، وفى حال وجودها وفى حال عدمها وسبقت مشيئته وإرادته ، ونفذ سمعه وبصره وأمره ، فلا تتحرك ذرة ولا تسكن ، إلاّ والحق تعالى هو الذى يحركها ويسكنها ، وكل ما سبق فى علمه فهو شىء باعتبار أن الإرادة شاءته ، فهو مشىء بتشيئتها ، ولذلك قيل له شىء فشيئته كانت بالمشيئة ، ولما كان سبق المشيئة أزلا وأبداً ، وكل ما شاءته المشيئة ثابت فى العلم ، وإذا ثبت فى العلم الإلهى كان مُنْكَشفاً للحق بعلم الحق ، فالله تعالى قدير على كل شىء سبق فى علمه ، وأما مالم تسبق به المشيئة ، ولم يتعلق به العلم فهو من قسم المستحيل الذى يتصور العقل وجوده .

نعم إنَّ العلم يعلم أنَّ المستحيل مستحيل ، ولكن لا يلزم من ذلك أنْ يكون للمستحيل عين تعلم أو تكشف إلا إذا أريد بالمستحيل ماتصوره فى نفسك عندما تريد تعريف المستحيل ، فإنَّ الذى صورته فى نفسك من قسم الخيال وليس هو من المستحيل الذى هو عدم محض .

واعلم أن العدم ليس شيئاً فكيف قال الحق للعدم كن موجوداً حتى وجد ؟

وجوابه أنّ الله تعالى توجه أمره على ما هو منكشف له فى علمه بالوجود المقدر أو العدم المقدر فصار وجوداً ، وبهذا يندفع ما يقوله بعضهم : إنّ العبد كان عدما والحق تعالى قال للعدم كن فكان ، والعدم لايكون وجوداً ، وذلك محال ، لأن العدم والوجود حقيقتان متضادتان متخالفتان على طرفى نقيض وكيف تنقلب حقيقة منهما إلى الحقيقة التى تخالفها ، ولو جاز ذلك لجاز انقلاب الوجود عدماً والعلم جهلا ، ولا قائل به من العقلاء أبداً .

واعلم أنّ العبد إذا فنيت إرادته فى ربه ، فلا يريد إلا مايريده مولاه ، ومهما أقامه فى إقامة ، فإنه يرضى بها ، مالم تكن معصية لله ، فإنه لايصح الرضى بما لا يرضى الله به ، وإذن فإن الله تعالى يطيع ذلك العبد فيما يريده بمعنى أن الله ينفذ له ما يريده .

ألا بالصبر تبلغ ما تريد ... وبالتقوى يلين لك الحديد

وقال بعضهم :

ولما تصافينا المحبة بيننا ... فصرنا ومن نهوى كشىء واحد
إن شئتُ شاء وإن أمرتُ فأمره ... أمرى لقد بلغت كل مقاصدى

فأنا الذى أهوى ومن أهوى أنا ما شاء يصنع حاسدى ومعاندى

وقد نقل عن سيدى إبراهيم الخواص ، أنه رأى شخصاً يهوى إلى النهر ، فقال قبل وقوعه : (يقف مكانه فى الهواء حتى يأتيه من يأخذه) فوقف الرجل معلقاً فى الهواء حتى أتى من أنقذه ، وكان إبراهيم ابن أدهم يهز شجرة الشوك فينزل منها رطب ، فيأكل أصحابه ، وبعد أن قام الشيخ هزها جماعة من أصحابه ، فتساقط عليهم الشوك ، فضحكوا من ذلك ، وعلموا أنهم لم يدركوا الشيخ ، وكان شيبان — رضى الله عنه — يمسك بأُذُن الأسد فيعركها ، ويطرده عن الطريق ، وكان لسهل — رضى الله عنه — فى بلده تستر (بيت يسمى بيت السباع) كان يضيف فيه السباع عندما تأتى لزيارته ، وكان بعضهم جالساً وعقرب تمشى على رجله ، فقام بعض الحاضرين ليقتلها ، فقال دعها فإن كلّ شىء محتاج إلينا .

ونقل عن بعض الأولياء أن الله أحيى له حماره ، وثبت أن الله أحيى لأبى يزيد نملة ، وبعضهم كان يسقى الأرض للناس من المطر بالأجرة ، فجاءه رجل ليسقى له أرضا وأعطاه الأجرة وبقى منها شىء لم يدفعه له ، فأشار الشيخ إلى المطر فنزل وسقى الأرض بقدر الدراهم التى دفعها صاحب الأرض ، وبقيت قطعة لم تسق وفوقها سحابة لم تنتقل فكلم الشيخ فطلب منه ما بقى عنده فأعطاه له فنزل المطر ، وسقى

القطعة التى كانت باقية من غير سقى ، وبعضهم كان يركب السبع ويطير فى الهواء ويفرش حصيراً فى الهواء ويصلى عليها ، وبعضهم يعبد الله فى البحر تحت الماء ، وبعضهم يشير إلى زرع فى غيط فيعود ذهباً ، ثم يشير إليه فيكون زرعاً كما كان بعد أن أخذ بعض الحاضرين شيئاً منه وهو ذهب وبقى عنده وكان ينفق منه ، وبعضهم كان يقبض من الحجر حلوى أو خبزاً أو سكراً أو غير ذلك كما يحب ويرضى .

كل هذا يفيدك أنّ العبد إذا أطاع ربه أطاعه ربه ، وعلى قدر طاعتك له تكون طاعته لك ، بل طاعته لك تكون أضعاف طاعتك له ؛ لأنه سبحانه وتعالى شكور يقبل القليل ويجازى عليه بالكثير ، ولقد جاء فى الحديث القدسى : « عبدى أطعنى أجعلك ربانياً تقول للشىء كن فيكون » .

ينادى له فى الكون أنّا نحبه فيسمع مَنْ فى الكون أمر محبنا

واعلم أن الله تعالى قد أراد أن يعلمنا الأدب فقال (بيدك الخير) إشارة إلى أنّ التأدب فى حق الله واجب ، فلا يسند إلى الله إلاّ ما كان خيراً ، وإنْ كان الحق هو خالق الخير والشر ، ومن ذلك لا يصح أن يُقال سبحانه خالق الكلب مثلا وإن كان الحق هو الذى خلقه ؛ لأنه لما كان ذلك من المحقرات وجب تنزيه الله عنها وانظر إلى

ماحكى الله عن إبراهيم عليه السلام حين قال : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » تعلم أن الله تعالى قد أدب خليلهُ وهذبه وطهره وصفاه .

ثم إن الله تعالى بعد أن قال : « بِيَدِكَ الْخَيْرُ » وفيه الاكتفاء يذكر الخير أدباً فى حق الله قال تعالى إشارة إلى أنه سبحانه قادر على كل شىء من خير أو شر إنك على كل شىء قدير ، فما لم يذكر فى قوله تعالى « بِيَدِكَ الْخَيْرُ » ذكر فى قوله تعالى : « إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » فصرح بعموم القدرة فى خلق كل شىء ، والشر بالضرورة شىء فهو مما تبرزه القدرة ، وإنْ كان الأدب يقتضى تنزيه الحق عن ذلك ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

واعلم أنَّ العبد إذا حصل عنده يقين تام بأن الله على كل شىء قدير ، ونزل به أمر وتوجه إلى ربه فى كشف هذا الأمر فإن الله يكشفه عنه ، وإنْ توجه إليه فى تيسير أمر يسره ، ولذلك قالوا : ماتيسر مطلب أنت طالبه بنفسك ، وما تعسر مطلب أنت طالبه بربك .

وقال الشاعر :

إذا كان غير الله للمرء عدة ... أتته الرزايا من وجوه الفوائد

والله سبحانه يعطى العبد من حيث ظنه ، كما قال فى الحديث

القدسى « أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء » فإذا حصل فى جسم العبد جرح أو ظهر فيه دمل وظن أنه لا يشفى إلا بوضع شىء من العقاقير ثلاث مرات كان الشفاء بواسطتين ، وقس على ذلك ، فمن الناس من يعطى الشفاء بعشرين واسطة وأكثر وأقل ، وربما كان من الوسائط التى ظنها ما يتعذر وجوده ، وإن وجد فبشق الأنفس ، وإذا كان الأمر كذلك فما يمنع الإنسان من أن يظن بالله خيراً وأنه يشفيه بلا واسطة ، وقد عرف أنَّ الحق شفى كثيراً من الناس بلا واسطة ، بل كان الشفاء بمجرد التوجه إلى الله تعالى ؛ إذْ هو سبحانه الفاعل المختار ، وهو الشافى على الحقيقة ، ولا شافى سواه ولا مؤثر غيره ، وما قصر الإنسان عن ذلك إلا لسوء ظنه وضعف يقينه ، إذْ لو كمل يقينه لعرف أنَّ الأخذ بالأسباب لازم بحسب الظاهر ليس إلا ، وهو ستر على سر القدرة ، فسار فيه وهو يتيقن أنَّ الله هو الشافى وفى ذلك يكون ركونه لربه وسكونه إليه ، وقس على المرض غيره من الحاجات التى يطلب العبد قضاءها ، والأعداء التى يطلب العبد كف أذاهم عنه ، أو الرزق الذى يطلب تيسيره .

ثم إنك إذا طلبت أمراً وتوجهت فيه إلى ربك ، ولم يتيسر لك فاعلم أنك ضعيف اليقين ، ولم تكن متيقناً أنَّ الله على كل شىء قدير ، وإنْ كانت نفسك تُظْهِر لك أنك قد وصلت إلى ذلك ، فلا تثق بحديثها ، وسأدلك على علامة حصول اليقين الصحيح وهى أنك

تعلم علماً يقيناً أن الله على كل شيء قدير ، وتذكر ربك ، وتضع رجليك على الماء وتمشى عليه ، فإذا وجد عندك خوف وقت إرادة وضع رجليك على الماء ، أو تردد أو أنك تفعل ذلك تجربة كوضع رجل واحدة ، أو تضع رجليك فى ماء قليل قريب الغور ، أو تكون تعرف السباحة فتركن إليها ، أو يكون معك شيء تعوم عليه ، أو يكون بجانبك من يعرف السباحة أو مركب أو بناء تتعلق به ، أو يكون عندك مجازفة بأن توطن نفسك على الموت .

فإذا انتفى عنك هذا كله فقد وصلت إلى اليقين ، ثم إنَّ اليقين عند وروده تجد حالة فى نفسك تقوى وتزيد ، وتطلب المشى على الماء مثلا ، فإذا دفعتها لم تندفع ، ولو خوفت نفسك لم تخف ، ولو عذلك ألف عاذل لم تلتفت إليهم ، بل هى تزيد على كل حال ، فإذا شرعت فى وضع قدمك فى الماء زدت انشراحاً وقوة فى يقينك وسروراً وأنساً وابتهاجاً ، ويلازمك ذلك حتى تصل إلى البر ، فإن ضعف يقينك وأنت فى الماء سقطت فيه ، والحق تعالى لا يكرم عبده بهذه الكرامة وهو يريد أن يُهلكه حاشًا وَكلا .

فمن أراد أنْ يُمْسِكَ أُذُنَ السبع فجرب ذلك فى قط داره فهو كاذب ، وليس بصاحب يقين ولا يطيعه سبع ولا قط ولا أرنب .

وما أعطى الله عبده شيئاً مثل اليقين ، إذْ به يصل إلى مراده وإلى رضى ربه ، فيصدق كل ما أخبره به الحق ، وكل ما جاء

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل ما أمره به شيخه وكل ما أخبره به ، فيصل إلى مقامات الشهود ويكشف له عن عوالم الملكوت والجبروت .

ولذلك قالوا : اليقين إكسير المتقين ، فاسمع وأطع واعمل بما عرفتك تصل إلى مالم تنله بحيلة ، وإن حصل عندك شك فادع الله ربك ، أن يشفيك من مرضك الذى صار عضالا ، وهو سبحانه يُجيب دعاء المضطر إذا دعاه ، فالزم باب ربك لعله ينظر إليك فيطهرك من هذه الظلمات بجاه محمد خير البريات ، عليه الصلاة والسلام .

وإنه لعار عليك عظيم أنْ يحصل عندك يقين فى غير الله تعالى تعتقد أنه يشفيك كالدواء والطبيب ، أوْ أنه يقضى حاجتك ، وربما كان كافراً ، فتفتقر لمفتقر ينادى ـ وانظر تجد غيرك قد انحصر يقينه فى شيطان ، وتوجه إليه فى قضاء حوائجه فقضيت ـ وفى الحقيقة ماقضاها لك غير ربك ولكن على يد الواسطة التى وقفت عندها ، فكان ذلك فتنة لك وظلمة لقلبك وبعداً عن ربك .

وإذا كان اليقين فى الشيطان يحصل منه ذلك فأولى أن يتيسر لك مطلوبك إذا كان يقينك فى الله .

واعلم أن اليقين أصل من أصول طريق القوم فمن لم يكن له يقين فى شيخه لم ينتفع به ، وما فاز من فاز إلا باليقين فى أستاذه ، ومن

كان فى قلبه مثقال ذرة من الاعتراض على شيخه لم يكن صاحب يقين ، ولا ينتفع بذلك الشيخ ، وقد شاهدنا كثيراً من أهل طريق القوم لم يكن لهم كبير عمل ولا كثير علم ، ومع ذلك ظهرت عليهم لوامع الطريق وفتحها ، لما كان عندهم من اليقين فى أشياخهم ، ومن كان على عبادة الثقلين ولم يرزق اليقين فى أستاذه فهو مقطوع لا يجىء منه شىء ، وصاحب اليقين إذا كان نائماً خير ممن فقد اليقين ، ولو كان قائماً صائماً عالماً .

وعلامة اليقين أنْ يخاف أستاذه أن يغضب عليه أو يهجره ، فإنْ تغير عليه أو طرده يرتعد من الخوف ، ويبادر بالتوبة ، ولو طرده الشيخ ولم يقبله ألف مرة يزداد فى كل مرة خوفاً على خوفه ، ولو لم يكن لتغير الشيخ عليه سبب ظاهر يستوجب به ذلك .

ومن علاماته أنه إذا كلمه شيخه يعتقل لسانه ويضطرب ، وربما أجاب الشيخ بكلام لا معنى له ، وربما اصفر لونه واشتدت ضربات قلبه ، بل قد شاهدنا من إخواننا ما يبشرنا ـ إنْ شاء الله ـ بالقبول ، وهو أنَّ سيدى سلامة ـ رضى الله عنه ـ نادى أحدهم ، فقال ياسيدى فلان ، فقال على الفور نعم ولشدة ما خامر قلبه من الخوف بال على نفسه مع أن سيدى سلامة ـ رضى الله عنه ـ ماناداه بعنف ولا شدة ، ولا ظهر منه عليه غضب ولم يكن قد فعل ذنباً ، وظن عند نداء

سيدى سلامة ـ رضى الله عنه ـ له أبه ـ رضى الله عنه ـ سيماتبه فيه ، وقد عرفه إخوانه بالشفقة عليهم ، والرأفة بهم لاسيما الكهل منهم ، فإنه ـ رضى الله عنه ـ يوقره ويعطيه منزلته .

ولقد قال سيدى أبو القاسم القشيرى ـ رضى الله عنه ـ صاحب الرسالة : إنى كنت عند دخولى مدرسة أستاذى سيدى على الدقاق أحس بخدر فى جسمى بحيث لو غرزت الإبر فى جسمى لما أحسست بها ، وهذا صريح فى احترام شيخه .

وقد قالوا ـ رضى الله عنهم ـ من حرم احترام المشايخ ابتلاه الله بالمقت ، وقسى قلبه وأظلمه ، نعوذ بالله من ذلك .

اللهم ارزقنا الأدب مع أحبابك ، واكفنا شرور أنفسنا بمنك وكرمك .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

« يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ »

قال أهل التفسير فى إيلاج الليل فى النهار ، وإيلاج النهار فى الليل : إنَّ النهار إذا نقص يزيد ما ينقص منه فى الليل ، وإذا زاد أخَذَ من الليل بقدر ما زاده .

ولقد خطر لى أن أتكلم على ذلك من حيث العلوم الطبيعية ، ولكنى رأيت كثيراً قد تكلموا فى هذا العلم وأكثروا فيه ، ووضعوا له قواعد واصطلاحات تبعوا فى بعضها الفلاسفة السابقين من اليونان ، وأحدثوا بعضها باجتهاد منهم ، واكتشافات لهم ، أفنَوا فيها أعمارهم ، وفيها كثير من الأمور التى يجب تنزه أهل الدين عنها ، إذْ أنَّ هذه الأمور ، قد عجز غالب الباحثين فيها بعقولهم عن الوصول إلى كنه حقيقتها ، وغاية سعيهم وسيرهم عجز وضلال ، وإنْ كانوا قد أصابوا فى بعض الأمور ، فقد أخطأوا فى الغالب ، ولهذا كان التمسك بما ورد فى الشرع أولى .

وإن قيل : إنَّ هذه الأمور لا تناقض حقيقة ما ورد عن الله ورسوله ، فلا عبرة بأنها تخالف بعض ما يعتقده بعض العلماء أو المؤمنين .

فنقول : إنّ أصول الدين معروفة مقررة ، وهى الكتاب والسنة والإجماع ، فما جاء فى الكتاب والسنة صريحاً وأيده إجماع السلف الصالح ـ رضى الله عنهم ـ فهو واجب الاتباع ، والالتفات عنه زيغ وضلال ، وأما مالم يذكر صريحاً ، وفسره إجماع الأمة من الصدر الأول ، فإننا نقبله كما فسروه تفسيراً صريحاً ، لا يقبل التأويل بشرط أنْ يصل إلينا ذلك التفسير متواتراً عن الثقاة العدول .

بل إذا ذكر الشىء صريحاً فى كتاب الله ، وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن إجماع السلف من الأمة انعقد على تأويله ، وصرفه إلى معنى آخر وجب الأخذ به حتى لقد روى عن مالك ـ رضى الله عنه ـ أنه قال فى قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ . . . » الآية .

لو قالوا (يعنى الصحابة) رضى الله عنهم : إن المرافق هى الكوعان لفعلت ، فانظر إلى وقوف مالك ـ رضى الله عنه ـ عند احترام الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ إلى هذا الحد ونعم ما قال ، ونعم مافعل لأنهم نجوم الهدى فى أعين المتأمل ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » فوجب الاقتداء بهم ـ رضى الله عنهم ـ فيما ورد عنهم ، لا سيما إجماعهم ،

فإنه حجة قوية ، لا يجوز العدول عنها إلى غيرها .

ولقد اختلف أهل العلوم الطبيعية فى الضوء ، هل هو منتشر فى الكون ، أو هو من الشمس مباشرة ، ولهم فى ذلك مذاهب متباينة تدل على أنهم قد عجزوا عن معرفة حقائق الأشياء ، وأن الله تعالى لم يكشف لهم منها شيئاً ، وغاية ما اهتدوا إليه هو معرفة بعض الظواهر ، التى لا تفيد معرفتها معرفة الحقيقة .

وقد ادعى بعضهم أن النور هو ذلك السيال المنتشر فى الكون ، وهو خلاف الهواء وأنه يتحرك من مبدإ الحرارة ، فتهتز دقائق السيال ، ولا يزال ذلك الاهتزاز يسرى من ذرات ذلك السيال المجاورة لمبدإ الحرارة حتى يصل إلى العين ، فينطبع فى العين ، كما أن الصوت هو قرع عنيف مِنَ الهواء الخارج من الفم على الهواء الخارجى ، فتحصل اهتزازات فى الهواء الخارجى ، ولا تزال الاهتزازات تسرى فى ذرات الهواء حتى تقرع طبلة الأُذُن ، ثم إنَّ الطبلة تقرع الهواء الذى هو داخلها ، وذلك الهواء يقرع على العصب الموصل إلى المخ ، فكان اهتزازات السيال موصلا إلى العين ، كما أن اهتزازات ذرات الهواء ، تقرع الهواء الخارج من الفم الموصل إلى الأُذُن .

وقد سموا هذه الطريقة طريقة التماوج أَخْذًا من تماوج أجزاء السيال الضوئى ، وأما الطريقة الأولى التى قال أصحابها : بأن الضوء

منبعث من الشمس مباشرة فهى تسمى طريقة التشعع أخذًا من أنّ الضوء هو شعاع نور الشمس ، ولقد قرر علماؤهم أنهم لم يقفوا حتى الآن على حقيقة السبب المولد للضوء .

ومن أقوالهم : إنهم قرروا أنّ الضوء ليس بسيطاً ، وبرهنوا على ذلك بأن الإنسان إذا ترك الضوء يمر من خلال قطعة من البللور فإنه يتحلل إلى سبعة ألوان أصلية هى : الأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر والأزرق والنيلى والبنفسجى .

وقالوا : بأن الضوء إذا مس جسما فإنه يظهر أبيض إذا كانت طبيعته أنْ يعكس مجموع الأشعة من غير تحليلها ، لأن اللون الأبيض ناتج من اجتماع هذه الألوان .

وقالوا : إنه إذا ابتلع الأحمر جميع الألوان من غير استثناء فيكون أسود ؛ لأن السواد عدم الضوء بالكلية ، وإذا كان قد ابتلع الألوان كلها فلا ضوء طبعاً .

وادعوا أنّ الهواء الذى يملأ الجو من خواصه ابتلاع جميع الألوان ما عدا الأزرق ، فلذلك نرى السماء زرقاء بلون الهواء الذى بيننا وبينها .

ومن أدلتهم على أنّ اللون الأبيض مستجمع من الألوان السبعة التى تقدمت أنك لو قسمت دائرة إلى سبعة أقسام مع تلوين كل قسم بأحد ألوان الضوء السبعة الأصلية ، ثم دوّرت هذه الدائرة بسرعة

عظيمة يخيل لنا أن الدائرة لونها أبيض أثناء الدوران ، لأن سرعة الحركة تستجمع الألوان ، وتخلط التأثيرات . بحيث إن العين لاتستقبل إلا لوناً واحداً وهو الأبيض المكون من الألوان السبعة الأساسية .

وقالوا : إن الزجاج الأحمر يبتلع كافة الأشعة الداخلية فى تركيب الضوء ماعدا الأحمر ، وإنّ الأحمر يبتلع الأشعة الزرقاء ، وإن الأزرق يبتلع جميع الأشعة ماعدا الزرقاء منها ، وإن الأحمر ، إذا نفذت فيه بقية الألوان فإنه يكون أحمر ، وإنه إذا استغرق جميع الألوان ما عدا الأشعة الخضراء فإنه يكون أحمر ، وإذا ابتلع جميع الألوان من غير استثناء فإنه يكون أسود كما تقدم .

ومع كل هذا فإنهم قالوا : إن الحرارة سيال لطيف ينفذ فى جميع الأجسام بتفريق ذراتها ، ولم يتيسر لعلماء الطبيعة حتى الآن إقامة الدليل على أنّ الحرارة مادة ، ولذلك قال بعض الطبيعيين : إنّ الحرارة نتيجة حركة داخلية تنتهى بتقريب ذرات الجسم المتولدة فيه أو بتبعيدها على حسب مقتضيات الأحوال .

وقالوا : إن الحرارة تؤثر فى كافة الأجسام ، وإنها تنبعث من الأجسام على هيئة أشعة وإنها كالضوء والصوت تأخذ فى القلة والنقصان كلما بعدت مسافة الجسم الذى تنبعث منه هذه الحرارة .

ولنعلم أن هذا الذى ذكروه لايفيدنا معرفة حقيقة الضوء ، وإذا لم

نعرف حقيقة الضوء لم نعرف حقيقة النهار ، ويلزم من ذلك عدم معرفة حقيقة الظلمة والليل ، فقد اضطربت أقوالهم فى معرفة الضوء والحرارة وصرحوا بأنهم حتى الآن لم يقفوا على حقيقتهما ، وقد عرفت أنهم عبروا عن الضوء بأنه سيال لطيف ، وكذلك عبروا عن الحرارة بأنها سيال لطيف مع عدم تحقيق شىء منهما مع قولهما بأنهما ساريان فى الكون ، ولم يحققوا إن كان الضوء عين الحرارة أو غيرها ، وقولهم إنّ الضوء هو تشعع الحرارة أوْ إنه منبعث من الشمس مباشرة لايفيد أنّ الحرارة غير الضوء ، أوْ هِى هُو .

إذا عرفت ذلك وجب الوقوف حتى يأتينا التعريف من الله تعالى ، ومن رسوله صلى الله عليه وسلم .

فإذا نظرنا فى الشرع ووجدنا فيه مايشير إلى ذلك ، فإنْ وجدنا الإجماع قد انعقد على الأخذ بالنص الوارد من غير تأويل وجب علينا الأخذ به ، وإن كان الوارد يشير إلى المراد من غير تصريح آمنا به على نحو ما ورد ، وعلى مراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم ، من غير خوض فيه بالعقل ، إلى حد يخشى معه الزيغ والضلال .

وإذن يقال : إنّ النهار هو مدة وجود الشمس ظاهرة على وجه الأرض ، والليل مدة غيبتها عن ظاهر الأرض ، وإذا كان الأمر كذلك فالنهار ينبسط فيه نور الشمس والليل تتوارى فيه الشمس ،

وهو محل الظلمـة ، وإن الشمس سبب ظاهرى للضوء ، والحق تعالى هو خالق الضوء مباشرة من غير واسطة الشمس ، فإضاءة الشمس إنما هى بالله لا بها ، والنهار هو محل ظهور الضوء الذى خلقه الله بسبب ظهور الشمس ، وإذا غابت الشمس خلق الله الظلمة التى محلها الليل ، فليست الظلمة ناشئة عن فقد الضوء وإنما هى خلق خلقه الله تعالى .

ولا يغرنك القول بأن الأجسام منها ماهو مضىء بنفسه كالشمس ومنها ما هو مضىء بغيره كالأشـياء التى تضىء بإشراق نور الشمس عليها ، ومنها ما هو مظلم ومنها ماهو أقل ظلمة ، فإن هذا القول ليس عليه مسحة تحقيق وإنما هو تشبث بظواهر الأمور وغير وصول إلى حقيقة الأشياء .

قال تعالى : « فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » .

ومن قال : إنه يلزم من فقـد الضوء وجود الظلمة من غير نظر إلى الأسباب فهو قائل بقول أهل مذهب التولد ، فإنهم يقولون : إنَّ الشبع يتولد من الأكل ، والرى من الشرب وحركة الخاتم من حركة اليد أوْ الأصبع ، وليس هذا من مذهب أهل الحق ، بل التحقيق أن الله خالق للأشياء كلها بلا واسطة ، بل هو خالق لها مباشرة من غير حلول ، ولا علاج ولا مزاج ولا عـلة ولا معلول ولا تولد ، فالنور فعل الله تعالى وخلقه ، والظلمة فعله وخلقه ، والنهار كذلك ، والليل

مثله ، ولا يقال : إن النور هو النهار ، ولا الظلمة هى الليل ، بل النور نور النهار ، والظلمة ظلمة الليل ، وكما أن الله تعالى خلق النور فقد خلق النهار ، وكما خلق الظلمة فقد خلق الليل .

وإذا عرفت أن ذلك كله من الأسباب التى أقامها الحق فى هذا الكون ستراً على سر القدرة الإلهية التى استأثرت بالفعل على الإطلاق علمتَ أن الله سبحانه نور السموات والأرض على الحقيقة لا المجاز ، وأن قوله تعالى : « اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » ليس بمعنى منورها بالشمس والقمر إلا إذا قيل إنه منور السموات والأرض بالشمس والقمر من باب التجوز وإقامة الأسباب وإلا فالحقيقة أنَّ الله هو نور السموات والأرض ، وتحقيقه أن نور الشمس والقمر ليس قائماً بذاته ولا هو منير بذاته ، وإنما الإنارة بالله تعالى ، وكذلك البصر ليس الكاشف له المرئيات نور الشمس والقمر ولا النهار ، وليس هو كاشفاً بذاته ، وكذلك الأشياء المنكشفة للبصر ، ليست منكشفة بذاتها ، وإنما الحق هو الذى أعطاها رتبة الانكشاف .

وإذا كان نور الشمس وغيره من الأنوار والبصر ليس منها شىء كاشف بذاته ، ولا الأشياء المنكشفة منكشفة بذاتها ، ولا القلب الذى يعقل الانكشاف والكشف يعقل بذاته ، ولا العلم الذى يعلمها يعلم بذاته ، ولا الإرادة تريد بذاتها ، فالأمر كله لله وحده ،

لأن الحق هو المنفرد بالتأثير فى كشف الأشياء للبصر والعقل والعلم والإرادة ، وكذلك بالحق انكشاف المنكشف فالحق سبحانه هو نور السموات والأرض على الحقيقة .

وقد قالوا : إن النور ما به الكشف والبيان ، والكشف بالله ، والانكشاف بالله ، والبيان بالله ، وعدم الكشف بالله ، وعدم الانكشاف بالله ، وعدم العلم بالله ، وعدم القدرة بالله ، وعدم الإرادة بالله ، فالحق هو القائم لكل فعل ، ولا تأثير لغيره البتة .

إذا علمت ذلك فقد قال تعالى : « اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » .

ويُفهم من ذلك أن الحق سبحانه له مَثَل ، (بالتحريك) وليس له مِثْل (بالسكون) إذا عرفت من هذه الآية ، أن الله تعالى قد ضرب لنوره مثلا ، وأما نفى المِثْل ، فقد قال تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

فالمَثَل بتحريك الميم والثاء جائز ، والمثْل بكسر الميم وسكون الثاء ممنوع ، كما أن التجليات التى يسميها الصوفية بالتجليات الصورية كلها من باب المثَل بالتحريك لا من باب المثْل بالسكون .

وقالوا : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: « رأيتُ ربى فى أحسن صورة » وهذا يفيد جواز المثَل بالتحريك على وقالوا إنَّ المَثَل بالتحريك يقتضى اشتراكا فى الوصف من بعض الوجوه ، وإنَّ المثْل بالسكون يقتضى مماثلة تامة وهذا غير جائز فى حق الله تعالى :

قال الشاعر :

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

وإذا كان الحق يضرب لنفسه مثلا بالمخلوق الذى لا تنزيه له فلا قائل بعدم جواز المثل على الله ومن هذا الباب رؤية الإنسان لربه فى المنام ، وربما كان على صورة كما يرى الإنسان السلطان فى منام ، ويعبر منامه بأن السلطان فى المنام يعبر عن الله تعالى ، وليس أحد ينكر هذا فى الدين ، بل هو شائع مستفيض كما أن قلب العارف يظهر فيه نور تجلى الحق على الحقيقة المحمدية الأحمدية ، فيكون قلب العارف زجاجة أى قنديلا فيه مصباح نور تجلى الحق على الحقيقة المحمدية الأحمدية ، وذلك المصباح النورانى الإلهى ، وهذه الزجاجة التى هى قلب العارف كأنها كوكب درى لأن قلب العارف لا تحصل فيه الأنوار إلا بعد الصفاء وذهاب الكدورات ، وهذه الزجاجة

الصافية التى كأنها كوكب درى المعبر بها عن قلب العارف مودعة فى صدره أو باطنه ، والصدر هو المشكاة أى الكوة أو الطاق .

ثم إن المصباح يوقد من شجرة مباركة زيتونة هى شجرة الوادى المقدس أى أنّ نور التجلى الوارد على قلب العارف إنما هو من باطن تجلى الحق على شجرة التجلى الكلية ، وهى الحقيقة المحمدية الأحمدية التى هى لا شرقية ولا غربية .

وقد عبر الحق بشجرة الزيتون لما فيها من الإشارة إلى أنّ شجرة الزيتون فيها الزيت ، وأنها تخرج من طور سيناء وهو محل مناجاة الكليم ، فلذلك كانت مباركة .

والإشارة بأنها لا شرقية ولا غربية تفيد أنها قد تنزهت عن الجهات وقيودها بل كانت هى جهة الجهات ، وحوت كل جهة ، وأن هذه الشجرة المباركة قد امتلأت بأنوار فيض التجلى الإلهى ، وكان زيتها مددها من حيثما تمد هى ما فى حيطتها وأما من حيثما تمد به هى ، فالتجلى الوارد عليها منزه عن صفات المحدثات ، فزيتها يكاد يضىء أى يلمع أو يتقد ولو لم تمسسه نار ، والنار هى ظهور سطوة القهر الإلهى بالتجلى الجلالى هذا من حيثما يكون التجلى الوارد عليها ، ويكاد زيتها يضىء أى مددها يظهر ويلمع لمن يهتدى بهديها ، ولو لم تمس ذلك الزيت أو المدد نار ، أى تتوجه همة علية توصل ذلك الإمداد إلى من هو فى حيطتها .

وقوله تعالى : « نُورٌ عَلَى نُور » يفهم منه الإشارة أن نور الحق وارد على نور رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيظهره ، وأن نور الحق المتجلى على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هو الوارد على نور الحق المتجلى أى الظاهر الْمُظْهِر (اسم فاعل) لمحمد — صلى الله عليه وسلم — فيكون نوراً على نور .

ثم إن نور التجلى الوارد على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الوارد على النور المظهر للعبد المخلوق من نوره ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيكون نوراً على نور وكذلك نور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وارد على نور العبد المستمد من باطنه ، فهو رقيقة من رقائقه ولذلك لما كان المصباح له نور ، والزجاجة لها نور كأنها كوكب درى ، وزيت الشجرة يكاد يضىء لشدة نوره ولمعانه كانت أنواراً على أنوار ، وأن الله تعالى يهدى لنوره من يشاء ، وهذا الهدى يكون بتعرض العبد لنور الحق الظاهر على العارف بالله تعالى ، والظاهر فى الشرع الشريف من حيث التعريف ، وعلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حيث الوارد ، والنور الظاهر مجرداً عن المظاهر ، وعن المواد ، وعن الملك والملكوت ؛ إذ النور عين الظهور اللهم يا نور النور قبل الأزمنة والدهور جل شأن ربنا عن أن يكون نوراً من هذه الأنوار التى تراها أو تتعقلها فتظن أن نور الحق أبيض أو أصفر أو غير ذلك ، فإن الحق متعال عن ذلك كله .

والأنوار إنما هى بحسب ما تضاف إليه ، فإن أضيف النور إلى النار قيل نور النار ، وإن أُضيف إلى نور المَلَكِ كان نوراً روحانياً ، وإنْ أُضِيف إلى نور العقل كان نوراً عقلياً ، وإنْ أُضِيف إلى القلب كان قلبياً ، أو إلى النفس كان نفسياً ، ولا يخفى علينا أن نور العقل لا يكون كنور الملك ، ونورها ليس كنور النار ، ونورهم ليس كنور النفس .

وإذا كان الأمر كذلك فنور الحق ليس كنور الخلق ، فإذا سرت فى نفسك حتى وصلت إلى قلبك ، وانضح لك نور عقلك لا تراه ـ ضرورة ـ من جنس الأنوار التى تراها عينك ، أو تخطر ببالك بحيث لو رأيت هذا النور لم يتيسر لك التعبير عنه ، لأنك إذا عبرت لمن لا يراه كنت كمن أرادَ أنْ يُعَرِّفَ شخصاً آخر حلاوة العسل من غير أنْ يذوقه .

وإذن فالنور الحق لا يحجبه شىء ، إذ لو حجبه شىء لكان من جنس ما حجبه فإن الأجسام تحجب الأجسام ، وليس نور الحق من عالم الأجسام ، وإذا كان نور الحق منزهاً عن صفات الخلق فليس له مكان ولا زمان مع أنَّ الحق معنا فى كل زمان ، وفى كل مكان ، معية لا تحصر الحق ولا تكيفه ، ولا ينشأ عنها القول بصفة من صفات الحوادث فنور الحق مطلق لا يتقيد بالخلق ، وليست معيته كمعية الأجسام والأرواح ، ولا يقال إنه يلزم من كونه معنا فى كل زمان

ومكان ، أنّه داخل فى الزمان والمكان فإنه سبحانه ليس من جنسهما ولا يحصر فيهما وليس عند ربك صباح ولا مساء ، فالزمان والمكان عند الخلق لا عند الحق ، وإنما الحق يرى خلقه فى زمان ومكان وكيفية ولا يغيب عنه ذلك ، وليس هو ـ سبحانه ـ بعيدا عن الخلق حتى يقال إنه منعزل عن الخلق فى ناحية ، وليس قريباً بمعنى قرب الأجسام فإنه يلزم من ذلك أن يكون جسما .

قال تعالى : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » ثم أخبرك الحق أنه ضرب للناس الأمثال ، وكل ما فى الوجود إنما هى أمثال ضربها الحق ، وهذه الأمثال قائمة بفيض أنوار تجليات الحضرة الأقدسية ، وكل هذه الأمثال لم تزل فى علم الله تعالى كلها فقال تعالى : « وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » فكل شىء إنما هو فى علمه تعالى .

ولنرجع إلى الكلام على قوله تعالى « يولج الليل فى النهار . . . الآية » فنقول : إن الليل قد يعبر عن ظلمة الإمكان العدمية بمعنى أنّ الخلق لذاتهم عدم محض ولولا تجلى الحق عليهم بالوجود لما وجدوا ولذلك قال سيدى أحمد بن عطاء الله السكندرى ـ رضى الله عنه ـ فى حكمه : (الكون كله ظلمة ، وإنما أنارهُ ظُهُورُ الحق فيه ، فمن لم يشهد الحق فيه أو بعده أو قبله ، فقد أعوزه وجود الأنوار ، واحتجبت شمسه بسحب الآثار) أو هذا معنى ما قاله رضى الله عنه .

وبهذا الاعتبار يكون الوجود نوراً ، وقد يعبر بالليل عن الإبهام

الذى لا مجال للعقل فيه ، فكل ما كان متوغلا فى الغموض أو الاستتار وعدم الانكشاف قيل له ليل ، وقد يطلق عليه ظلمة ، ولذلك عبر بعض الأشياخ عن نور المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالغيهوبة قاصداً هذا المعنى لأن نوره صلى الله عليه وسلم ، لما كان فوق العقول والأفكار والأوهام حتى قال عليه الصلاة والسلام : « والله ما عرفنى غير ربى » كان سير العقول فى طلب معرفة حقيقته فى حقائق مستترة عن التصور والتعقل حتى لا تدركها عيون البصائر وبذلك تكون العقول والأسرار والأرواح والأبصار والبصائر فى غيهوبة شديدة بالإضافة إلى العقول والأسرار والبصائر ، ولو أنها واضحة ظاهرة له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومنكشفة لربه سبحانه وتعالى.

والغيهوبة هى الظلمة ، والظلمة هى التى تستر الأشياء عن الأبصار فحالة من يسير فى حقائق ستر الله عنه معرفتها فهو فى حيرة شديدة فيها ولا يدرك منها شيئاً تشبه حالة من يكون فى ظلمة شديدة فى الطريق المحسوس فلا يدرى الأشياء التى تصادفه ولا يعرف منها شيئاً .

وإذن تعرف جواز تعبير بعضهم بالظلمة عن نوره صلى الله عليه وسلم ، بل قد عبر بعضهم بالظلمة عن نور الحق تعالى ؛ لأنه أشد خفاء وبطوناً من نور المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنْ كان بطون نوره تعالى يخالف بطون الرسول الكريم ، ولكن شدة البطون قدر مشترك لا يوجب المثلية ؛ إذْ الحق متعال عن وجود المِثل ،

قال تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

وإذا كان الأمر كذلك فالحق تعالى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل بمعنى أنّ نور الحق تعالى سار سره فى حقيقة العبد ، والعبد قائم بسر ربه ؛ إذ لا قيام له بنفسه ، ويكون نور الحق تعالى ليلا باعتبار عدم انكشافه ، وأنّه لم يزل فى تعاليه وبطونه وتنزيهه فلا تدركه العقول والأسرار والبصائر ، ويكون نور العبد نهاراً باعتبار وضوحه وظهوره ، فيكون الإيلاج هو الدخول والمراد به تبدى أنوار التجلى فى عوالم العبد فيقوم العبد بأمر ربه .

هذا إذا اعتبرنا بصر المحجوبين ، وإذا ضربنا عنه صفحاً ونظرنا إلى بصائر بل أبصار أهل الفتح والملائكة ومن قربهم الحق وأظهر لهم أنوار تجلياته وكشف لهم عن أنواره فإن العبد يكون وجوده ليلا باعتبار أنه عدم محض لذاته ، ويكون تقويم الحق له وإظهاره إياه نوراً يعبر عنه بالنهار ، وقد يُشاهد بعضهم فى العبد ليلا ونهاراً ويشاهد ذلك أيضاً فى تجلى الحق ، فإذا نظر إلى ما تفصل فى وجود العبد وانكشف من أمره كان نهاراً ، وإذا نظر إلى ما بطن منه ولم يظهر تفصيله كان ليلا ، وكذلك إذا نظر إلى ظاهره كان نهاراً وإلى باطنه كان ليلا ، أوْ إلى انشراحه كان نهاراً وإلى كدره كان ليلا ، أوْ إلى الإنعام عليه كان نهاراً وإلى ابتلائه كان ليلا ، أوْ إلى الطاعة كان نهاراً وإلى المعصية كان ليلا ، أوْ إلى مايرد عليه من تجلى الجمال كان

نهاراً وإلى تجلى الجلال كان ليلا ، أوْ إلى القبض كان ليلا وإلى البسط كان نهاراً ، أوْ إلى الهيبة كان ليلا وإلى الأنس كان نهاراً ، أوْ إلى الأنوار التى تفاجئه كان نهاراً وإلى سترها كان ليلا ، أوْ إلى فتحه كان نهاراً وإلى ضده كان ليلا ، أوْ إلى الشهود كان نهاراً وإلى الحجاب كان ليلا ، أوْ إلى معرفته كان نهاراً وإلى جهله كان ليلا ، وإذا نظرنا إلى أنّ كنه الحق تعالى لا يدرك لغيره كان ليلا وإلى وضوح أنوار صفاته لمن يشاهد تجليات الحق كان نهاراً ، وبالنظر إلى أن شئون الصفات لا تتناهى ولا يدرى كنهها كان ليلا وإلى أنّ تجلياتها ظاهرة كان نهاراً ، أو إلى تجلى المعرفة كان نهاراً وإلى تجلى النكرة كان ليلا .

والمراد بتجلى المعرفة أن يتجلى الحق لعبده فيشاهده العبد متصفاً بالصفات التى وصل إليها تنزيه العبد لربه .

أما تجلى النكرة فهو أنْ يتجلى الحق لعبده فيشاهده متصفاً بصفات تليق به سبحانه لم يكن قد وصل إليها تنزيه العبد لربه ، وذلك ناشىء عن ضعف معرفته بالله وكأنهم أشاروا بذلك إلى أنّ الحق ظهر لعبده متنكراً فى صفات لا يعرفه العبد إذا تجلى بها الحق .

قال سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه :

ولقد خلوتُ مع الحبيب وبيننا ... سرٌّ أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفى نظرة أملتها ... فغدوتُ معروفاً وكنتُ منكرا

ولقد ورد فى السنة (أنَّ الحق تعالى يتجلى لعباده فى الموقف يوم القيامة فى الصورة التى لا يعرفونها ، فيقولون : نعوذ بالله منك لست أنت ربنا ، نحن هنا حتى يأتينا ربنا ، فيتجلى الله لهم فى الصورة التى يعرفونها فيقعون له ساجدين) وورد من هذا القبيل شىء كثير :

وبهذا فهمت معنى قول الصوفية تجلى المعرفة وتجلى النكرة ، وإذا عرفت أنَّ الليل يُولَج فى النهار بمعنى سطوع أنوار تجليات الحق على حقيقة العبد ، فالنهار كذلك يولج فى الليل ، بمعنى أنَّ نهار ظهور العبد ، يندرج فى بطون أسرار أنوار تجليات الحق ، فيكون العبد غيباً فى أسرار أنوار التجليات الإلهية .

الله أحد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وبعد فلما سئل صلى الله عليه وسلم عن ربه ، أنزل الله تعالى عليه قوله تعالى : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » الخ السورة . صدّر السورة بقل لأنه تعالى لو قال : هُوَ اللهُ أَحَد ـ لكان الحق قائلا هو عن نفسه وهو المتكلم ، وكان المقتضى أن يقول أنا الله أحد ، وبقوله تعالى : «قل هو الله» أتى بهو ضميراً للغائب وبعد قوله تعالى قل ، لأنه غيب عن المخاطبين وهم الكفار ، وإن كان الحق مشهوداً له ﷺ .

ولما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه فقال تعالى (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) وكلمة هو ضمير رفع منفصل فيه إشارة إلى الرفعة وهى علو المكانة فليس وراء الله مرمى لرام، ألا إنه بكل شىء محيط . وقد استوى على عرش الوجود فهو العالى فى دنوه ، والدانى فى علوه . وهذا الضمير يقع على الغائب ، والحق ليس بغائب ، بل هو سبحانه مع كل شىء بمعيّة تليق به ، وإنما أتى ضمير الغيبة للغائبين ، ولو تجلى لهم لشاهدوه أظهر من كل شىء . وعلموا أن اعتقاد الغيبة حجاب لهم عن ربهم لأنّ الحق جل شأنه متجل تجلياً أزلياً أبدياً ، منزهاً عن الزمان ، فلم ينقطع تجليه

ولم يكن خافياً فظهر ، ولا ظاهراً فخفى . نعم له ظهور وبطون ، وبطونه عين ظهوره ، وظهوره عين بطونه فما بطن إلا بظهوره وما ظهر إلا ببطونه :

وما استترت إلا برفع حجابها ومن عجب أن الظهور تستر

انظر فى نفسك حين تصور فى خيالك صورة ثم تلاشيها ، فذلك التلاشى هو بطون الصورة فيك ، وهى باقية فى دائرة روحك وروحك تشاهدها ، لا من حيث ظهورها الخيالى بل من حيث بطونها عن ذلك الوجه فتقع تحت شهود الاسم الباطنى لا الاسم الظاهرى ، كما أن أسماء الله لها وحدة فى كثرتها وكثرة فى وحدتها ، فكثرتها شئونها ، ووحدتها كنهها ، وإذا نظرنا إلى الصفات وجدناها كذلك ، لها وحدة فى كثرة وبالعكس . وأما الذات الأقدس فلا يوصف بكثرة بل له وحدة لا تتكثر . وإذا نظرنا إلى الذات والصفات والأسماء بل والشئون ، نجد لها كلها وحدة تغيب فيها وتستوعب الأسماء والصفات والذات . وإذا كانت الذات عين الصفات من حيث الكنه ، وغيرها من حيث التمييز والظهور ، كانت الصفات ليست غير الذات من حيث الكنه والحقيقة ، وغيرها من حيث التمييز والظهور . وإذا نظرت إلى روحك علمت أنها ليست بجسم ولا عرض لجسم ، وإذا انتفت الجسمية انتفى عنها التركيب والمكان ، فلا تتصف بالحلول

ولا بالمجاورة ، ولا بالبعد ولا بالقرب ، إذ كل هذه الأوصاف إنما تكون نسباً بين الأجسام .

مما تقدم علمنا أن الروح ليست بجسم ، ولو كانت الروح جسماً لاحتاجت إلى روح ، وإذا كانت الروح الثانية جسماً فإنها تحتاج إلى روح أخرى ، وينتهى الأمر إلى الدور أو التسلسل وكلاهما محال ، فتعين أن الروح ليست بجسم ، وماليس بجسم لايتصف بأغراض الأجسام . وليس من المعقول أن الجسم بذاته يعقل ويتحرك بالإرادة ، بل لابد من أمر زائد عليه بحركة الحركة الإرادية ، وهو المسمى بالروح .

وليس الجسم إلا مسكناً أو آلة للروح يسكنها ويستعملها مادامت صالحة للسكنى ، فإذا فسد منه جزء رئيسى يعطله تعطيلا تاماً بحيث لايصلح للسكنى تتخلى الروح عنه وهو المسمى بالموت ، فإذا كان الفساد جزئياً والتعطيل غير تام لاتتخلى عنه الروح وتستعمله على مافيه من عيب فيعيش أعرج أو أعمى أو غير ذلك ، وإذن تكون الروح ليست من عالم المواد المسمى بعالم الطبيعة ، بل هى من عالم آخر وراء الطبيعة ، وأولى أن يسمى بعالم الأرواح .

والروح وإن كانت من وراء الطبيعة ولا تكون جسماً ، فإنها عند إرادة الاتصال بجسم تتشبح جسماً لطيفاً ، كأجسام الملائكة أو الشياطين ، فيتصل ذلك الشبح بالجسم اتصالا ظهورياً لاحقيقياً ،

إذ المكان منتف عنه فيظهر فى الجسم صورة كصورته ساريا فيه سريان الماء فى العود الأخضر ، وذلك الشبح هو تعين الروح فى هذا العالم ، ولكنه بالكنه لا يتقيد به ولا تحكم الصورة عليه . وإذا كانت الروح ليست بجسم ولا تنقسم ، فأعراضها وصفاتها عينها ، إذ لو لم تكن كذلك لكانت الروح مركبة من حقيقتين مختلفتين . وقد علمنا أنها لو كانت مركبة لكانت جسماً ، وكل ما كان له أجزاء كان جسماً ؛ نعم قد يتركب الاثنان من وحدتين وليس بجسم .

ولكن هذا يشبه الكلى العدمى الذى لا يتحقق إلا بأفراده .

فالاثنان : واحد وواحد ، وهو اعتبار لما ليس بموجود وتركب الروح ليس من هذا القبيل : إذ لو كان له أجزاء لكانت الروح اسماً لمجموع الأجزاء ، وذلك تركب بالفعل ، والفرق بينهما أن الروح ليست من الوجود التقديرى كما هو فى العدد بل لذاتها وصفاتها وجود محقق . وأما الأعداد فالواحد سار فى مراتبه وكل عدد إنما هو تكرار الواحد فى مراتب الأعداد ، فما فى العدد غير الواحد وشأنه الوحدة فى حال تجرده والاثنينية فى حالة وجوده مرتين ، والثلاثية تثليث وبعده تربيع وتخميس وتسديس . . . الخ .

ولو كانت الروح مركبة لقام العلم ببعض ولم يقم بالبعض ، فكانت الروح عالماً جاهلا فى آن واحد ، وكل مركب فهو من

عالم العناصر، والروح ليست منه، فليس مركباً ولو كانت جسماً لكانت لها ثقل فيختلف ثقل الإنسان فى حياته عن مماته ، وليس بصحيح .

وإذا عرفت أن الروح لها صفات هى عينها ، فهل تكون الذات صفة ، وهذا يستلزم احتياجها لذات تقوم بها أو تكون الصفة ذاتاً ، وإذن يمتنع اتصاف الذات بالصفات ولا قائل به ، إذ لابد من من تعين وظهور أثر وشئون . كل هذا يأتى من قياس عالم الأجسام على غيره .

فالذات فى عالم الأجسام غير الصفة ؛ إذ العرض قد يزول ومتى زال وبقيت الذات فالعَرَض غيرها فتتوالى الأعراض ، والذات باقية لاتخلو من عَرَض البتة . ولو جردنا الذات عن الصفات والأعراض لم تعلم وكانت غيباً ، وحيث أن الأعراض متوالية ، وهى ألباس الذات وحُجُب ، فالذات غيب والحركة لاتدرك وإنما يدرك المتحرك والبياض ظاهر والذات محجوبة ، وقس على هذا .

وإذا كان المشهود فى هذا العالم أن صفات الأجسام غيرها ، إذ الأعراض لاتكون جواهر ، والصفات أعراض ولا تنقلب جسماً والروح ليست بجسم . ولا يقال إن أعراضها تنقلب جسماً فأعراضها من كنه ذاتها ، والروح سر وصفاتها سر والروح حساس ، حتى إذا مدّت بميت وكان غيرها ، لكانت مركبة من حى وميت .

ولا يتصور فى الجسم المحض أنه حى يمد بميت ولا عكس . وإذا قيل إنه يمد بحى فإما أن يكون الإمداد حياً ، فهو إما واحد أو متكثر ، وعلى الأول يمد بروح أخرى وعلى الثانى بأرواح متعددة .

إذا علم هذا تكون صفات الحق عينه من حيث الكنه ، وغيره من حيث ظهور الصفات ، وكما يقال فى الصفات يقال فى الأسماء . فذاته عز وجل وصفاته وأسماؤه قديمة واحدة كنهاً ومتكثرة ظهوراً ، بحيث لو كشف عنا الحجاب لرأينا ذات الحق متصفة بصفاتها الوجودية التى هى لها خلا صفات السلوب فإنها اعتبارية .

وإذا علمت هذا عرفت سر ماورد : (من عرف نفسه عرف ربه)

ولنعد إلى قوله : « هُوَ الله أحد » فنقول : إن الهاء من «هو» تأتى من الجوف فتمر بالحلق ، فهى حرف حلقى ، وإذاً تكون الهوية ظهور الأمر الإلهى من سر الغيب تجلياً إلاهياً ، فإذا وصل إلى أول مرتبة من الوجود الظاهرى بعد أن مرت بالباطن تسرى فى مراتب الوجود ، فتنفتح فيها مراتب من مرتبة أولى بعد مرتبة الهوية ، وهى المرتبة المحمدية المقابلة فيك للخلق ، فيحصل الفتح بظهور الواو بعد الهاء مفتوحة ، ويبتدىء التكثر فى الوجود الظاهرى ناشئاً عن الهوية السارية فيه ، وسريان الهوية بالعلم والحياة والقدرة والإرادة والوجود شئون حقيّة تسرى فى الواحد الخلقى ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم

وصلاً واقعاً بين هوية إلاهية منزهة عن صفات المخلوقات بعبد أول هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك الوصل لا ينشأ عنه اتصال الحق اتصالا يشبه اتصال الأجسام ، فالحق يحرك اليد ولا يلزم من حركتها حركته فإن وقفت سكنت الواو لشهودك صلاة ربك ، فمن شهدها غاب عن غيرها ، وشهد فاعلاً مباركاً ، والبركة صلاة والصلاة صلة ، والصلة إما هوية طلباً للرضى ، وإما قرب ، وإما ثناء بالاستغراق فيه .

والصلاة تكون منك كسباً ومنه خلقاً ، فإذا أفاض عليك صلاته صليت صلاتك بصلاته ، فإذا وقف الشيطان فى طريق الوارد ولبسه عليك صليت بصلاتك لا بصلاته سبحانه بل صليت بصلاة الشيطان فلا تكون هدية للحق ولا قرباً ولا فناء فيه ، بل تكون هدية للشيطان وقرباً منه وفناء فيه ، فكنت متصلا به لا بربك ، وانقطعت فى حضرته عن حضرة ربك ، وإذا عاملك بعدله سبحانه طرح صلاتك كلها لأنه جل شأنه لا يحب الشركة فى عبادة فيها للشيطان حظ ونصيب .

والصلاة الشرعية قاصرة على أفعال وأقوال خاصة ، ولكنا إذا نظرنا إلى كل ما يوصلك بربك ويجمعك عليه كانت كل أفعال القربات صلاة . فالذاكر فى صلاة ، وعائد المريض فى صلاة ، والتاجر الصدوق فى صلاة ، وكل عامل يتقى الله فى صلاة ، فالصلاة عامة فى كل شىء يقربك إلى الله ، وفى الفقه كل دعاء صلاة ، وفى التحقيق كل خير

صلاة ، وفى الشرع تكون الصلاة أفعالاً وأقوالاً خاصة .

ولما كانت الهوية الإلهية سارية فى الأكوان كلها كانت جامعة لصفات الحق تعالى وأسمائه وانفتق رتقها بظهور الصفات العليا والأسماء الحسنى ، ولما كانت الأسماء متقابلة كالرحيم والمنتقم والأول والآخر والظاهر والباطن ، وكانت كل هذه الأسماء ترجع إلى اسم ذاتى لا يظهر فيه المقابلة وهو الله ، وكان الاسم الله غير مشتق بل هو مرتجل . قال تعالى : (قُلْ هُوَ اللهُ) .

فالاسم الله هو الاسم الجامع لجميع الأسماء وقيل: إن أصله إله مشتق من أَلَهَ يأْلَهُ ، ثم زيدت عليه أداة التعريف فقيل الله فى حالتى الرفع والفتح ، وبالترقيق فى حالة الجر . والإله هو المعبود ، والإله الحق معبود بحق ، والإله الباطل معبود بغير حق ، ولذلك كان من معانى لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله . والإله الحق إله كل شىء وإله الآلهة المعبودة بغير حق لأنها فى الحقيقة خلق ، وتسميتها آلهة من الضلال ، ومن عبد إلهاً بغير حق كانت عبادة بغير حق ، ولا يقال إنه اجتهد فى طلب الحق وأخطأ فعبد غيره من باب خطإ المجتهد ، ومن أخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران ، فإن هذا إنما يغتفر لمن اجتهد فى أحكام العبادة لا المعبود ، إذ من أخطأ فى المعبود فليس له دين ، وكان كافراً أو زنديقاً .

وقد فهم البعض من قوله تعالى : (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ) إن الذكر باسم الله أكبر من ذكر بقية الأسماء ، وقوله تعالى : (قُلْ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) فصدَّر بالاسم الله وتنسب إليه الأسماء الحسنى ، والرحمن يلى هذا الاسم لأنه أتى به بعده وقد أتى هذا الاسم وهو الله فى شهادة الإسلام ، فمن قال أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقد أسلم ولم يرد لا إله إلا الرحمن أو لا إله إلا القدوس ، وتكرر الاسم فى لا إله إلا الله وفى محمد رسول الله فإذن يكون اسماً علماً على الذات الأقدس دون غيره من الأسماء التى تدل على صفاته العليا ، ولذلك أطلق عليه الصوفيون اسم الذات ، ومن أكثر من ذكره كان ذاكراً لربه من غير نظر إلى حاجة مفهومه من الاسم ، بخلاف من ذكر أى اسم من الأسماء غير هذا الاسم فإنه قد يكون ملتفتاً بقلبه إلى مفهوم الاسم الذى يذكره ، أو يطلب حاجة تناسب مفهوم الاسم ، فمن ذكر الودود فقد يكون ذاكراً طالباً للود الإلهى ، بمعنى أن الله يحبه ويوده ، أو يكون طالباً لودّ الخلق .

وإذن يكون قد ذكر الاسم ليتقرب بسره إلى الخلق ، وهذا ليس من السير إلى الله تعالى فى مقامات المقربين ، وقد يقال إنه محمود إذ ليس للعبد إلا سيده يناديه فى شدائده ، وفى أوقات اضطراره ، ولكنه يكون من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فمن تجردت همته عن الخلق وصفا مشربه وارتفع عن التوجه إلى السوى لم يلتفت

إلى غير سيده وانقطع عن النظر إلى الخلق فى إقبالهم وإدبارهم ، ولا يشهدلهم نفعاً ولا ضراً ويعلم أنهم لو اجتمعوا كلهم على أن يضروه لم يضروه إلا بإذن الله ، وشهد أن النافع والضار هو الله وأنه هو الفاعل المطلق ، وأن ماسواه ماهو إلا خلق له يقلبه كيف يشاء .

والواحد فى الفقه أصل الأحد فأبدلت الواو همزة فاجتمع ألفان ، والهمزة عادة تشبه الألف فحذفت إحداهما للتخفيف ، والأحد ليس من الأعداد فلا يبنى عليه العدد — ولا يقال أحد واثنان ، والواحد والأحد ليسا اسمين مترادفين ، الواحد يستعمل فى الإثبات والأحد يستعمل فى النفى ، تقول فى الإثبات : رأيت شخصاً واحداً ، وفى النفى تقول : مارأيت أحداً ، فأفاد العموم والأحد يشمل الواحد وليس العكس ، والأحدية من أوصافه تعالى استأثر بها لنفسه ، فلا يوصف شىء بالأحدية غيره تعالى .

ولما كان الحق كنزاً فإنه لايعرف لغيره ، وذلك هو مقام مرتبة الكنزية ، وهى مرتبة العماء وتلك مرتبة الأحدية ، وهذه الرتبة لايتعقل فيها صفة ولا اسم بل ولا اسم ذات ، وغاية مايعبّر به عنها أحدية للتفهيم ، والفرق بين العماء والكنزية والأحدية أن العماء لايعقل فيه إلا حجاب ، والكنزية لايعقل فيها إلا جملة الكنز ، والأحدية لايعقل فيها إلا أحد ، وكل هذه المفهومات مستهلكة فى هذه المراتب الثلاث ، ثم تنزل الحق إلى واحديته ، فظهرت الكثرة

الأسمائية الصفاتيـة فى تلك الوحدة والـكثرة وحدة الأحـدية ، فهو متجل بالواحدية فى عين تجلّيه بالأحدية ، لا يتعارضان ولا يتعاقبان ؛ فواحديته مستوعبة فى أحديته ، وأحديته سارية فى واحديته ، وفى تجلّيه بالأحدية ظهرت أحدية النور الأول ، وفى تجليه بالواحدية ظهرت واحدية النور الأول فـكان تجليه فى الأحدية بالهُوِيَّة ، وكان تجليه فى الواحدية بظهور الاستعدادات ، والقوابل واللوازم ، والعوارض والمراتب والمتقابلات ، ثم أراد الحق من حيث أسماؤه التى جلت عن الحصر أن يرى أعيان الأسماء ، أو نقول يرى عينه ، فإن الاسم عين المسمى ؛ تجلى بأسمائه وهى مفاتيح أعطية الذات بحكم كمال الصفات ، فانفصل من الواحدية ماأجمل فيها .

وكذلك الأعداد والمظاهر فالوحدة سارية فى مراتبها ، ومهما بلغ العدد من الـكثرة فالوحدة سارية فيه ، فإذا تـكرر الواحد مرتين أخذ مرتبة الاثنين ، وإذا تـكرر ثلاثاً أخذ مرتبة الثلاثة . وهكذا والواحد لايخرج عن وحـــدته ولا يتـكرر فى ذاته ، ولاتختلف اعتباراته وتتعدد مراتبه .

وقد يأتى التعدد من مرتبة الوحدة ، وتأتى الوحدة من مرتبة التعدد ، وفى الثانية يرجع التعدد إلى أصله . والوحدة لاتنقسم وإن تعددت مراتبها ، وتباينت مظاهرها ، وتخالفت تعيناتها . فإذا اتحدت الـكثرة وتلاشت برفع الاعتبارات ظهرت الوحدة ، فالعـــلم نقطة

تكثرت بمراتبها ، ومن توحد فى نقطته لم يشهد إلا وحدة تامة ، عين شهوده عين سر مشهوده ، ومن وقف مع كثرته حجب عن وحدته ومن وقف مع وحدته حجب عن كثرته . فكان معطلاً لأن الكمال يقتضى وصف الوحدة بالكمال ، ومن شهد وحدة لا اعتبار ولا مظاهر لها ، لم يشهد مقام الكمال ، ولم ينزّه ولم يشبه ، وإذا لم يشبه كان شرعياً ، ومن لم ينزه كان مُشَبِّهاً وهو خطر .

وقد تظهر الوحدة فى صورة التعدد ، عند أهل التعدد ، ولكنها واحدة فى تعددها عند من تلاشى فيها ، وقد تظهر فى صورة صفات الكثرة ، وهذا لا يقتضى انقسامها إلا عند من وقف مع الانقسام ، ولكنه إذا ترقى بصر إيمانه لم يشهد الانقسام تعدداً ، وإن شهد التعدد لم يحجبه عن وحدته ، فإذا صرت فرداً وخرجت عن اعتباراتك وتبرأت من عاداتك ، وتلاشت صفاتك ، وانمحقت ذاتك ، انجلت مرآتك ، وظهرت كمالاتك ، وفى ذلك قال تعالى فى حديثه القدسى : (مَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَلِسَانَهُ الَّذِى يَتَكَلَّمُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى عَلَيْهَا) .

فمن امتلأ بالله انطوى فى نوره ، فإن سمع كان سمعه عن الله ، وإن أبصر كان بصره عن الله ، وإن تكلم كان كلامه عن الله ، وإن

عمل كان عمله عن الله ، وإن سكن أو تحرك ففى الله لا يشهد إلا قُدُساً ، يتقلب فى سر الصفات ، ويزهو بجمال خلعة الأسماء وغاب عن الناس فى الله وهو مع الناس ، شكله شكل الخلق ، وتصرفاته من شئون الحق فهو فى كينونيته بائن ، وفى بينونته كائن ، وهو فى ظهوره باطن ، وفى بطونه ظاهر ، وهو فى جسمه سر وفى سره جسم . سره سار فى جسمه وجسمه سار فى سره ، ومن كان سراً رآه سراً ، ومن ارتقى عن الأجسام والأسرار ، رآه غيباً عن البصائر والأبصار ، ورأى الكل غارقاً فى علم مَنْ تعالى عن الأجسام والأسرار ، لا يحجبه السر عن الأجسام ، ولا الأجسام عن الأسرار ، يرى شئوناً تتقلَّب فإن وقف مع بعضها حُجب عن كلها . فإياك والوقوف والحصر ، وإياك والإطلاق عن كل شأن ، فإن الإطلاق فى الشئون ، والشئون فى الإطلاق ، فلا الشئون تنفى الإطلاق ، ولا الإطلاق ينفى الشئون ، ولا الشئون غير الإطلاق ، ولا الإطلاق غير الشئون ، الشأن حكمه ، والإطلاق حكمه ، الإطلاق تنزيهه عن كل وقفة واعتبار ، والشئون له مظاهر وآثار ، والمظاهر أوانى الأسرار . ومن عَجَبِ كأس هى الخمر عينها :

فكأنما قدح ولا خمر وكأنما خمر ولا قدح

فالواقف مع الحق فى غيب عن القدُّوس ، ومن وقف مع القدوس فى غيب عن السلام . فإن شهدت الحق قدُّوساً ، وشهدت القدوس

سلاماً ، فقد وقفت عند نقطة التوحيد ، وغبت عن شئون العلم ؛ فإنْ شهدت الكثرة فى تلك النقطة فقد جمعت بين الضدين ، ووقعت فى النقيضين ، وهو مستحيل فى المعقولات ، وإذن تكون قد التجأت إلى الاعتبارات ، والاعتبار حكم لا عين ، وحينئذ تكون فى غيب عن العين بالحكم ، وهو حجاب ولا حجاب ، والعارف يراه من السراب ولا سراب ، والحيرة حجاب ، يعطيك سلباً بلا إيجاب ، ويجعلك فى بعد عن الشراب .

وانرجع إلى تفسير بقية السورة الكريمة ـ أما قوله تعالى : « الصَّمَدْ » فهو فعل بمعنى مفعول ، من صمد إليه إذا قصده ، وهو المصمود إليه فى الحوائج ، وقيل : الصمد هو الذى لاجوف له ، والصمد فى الفقه : هو الحجر الأملس الذى لايقبل غباراً ، ولايدخله شىء ولايخرج منه شىء ، ولا يمكن أن يكون المراد من الصمد فى حقه تعالى هذا المعنى الأخير ، إذ هو صفة الأجسام تعالى الله عن ذلك والصمد فى حقه تعالى هو المقصود والمستغاث عند الشدائد .

وبقوله تعالى : (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) نفى كونه تعالى والداً أو مولوداً لغيره ، لأن كفار العرب قالوا إن الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله .

وبقوله تعالى : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) نفى التكافؤ عن ذاته ، وقُرىء كُفُواً بضم الكاف والفاء ، وبضم الكاف وكسرها

مع سكون الفاء ، والأصل هو الضم . ويقال كفو وكفء وكفاء والثلاثة بمعنى واحد ، وهو المثل . وفى السورة نفى عن نفسه سبحانه الكثرة بقوله أحد ، ونفى النقص والعجز بقوله الصمد ، ونفى المعلولية والعلة بقوله لم يلد ولم يولد ، ونفى الأضداد والأنداد بقوله ولم يكن له كفواً أحد ؛ وبذلك كله أثبت تعالى أنه لا يشبه أحداً من خلقه ، إذ لو شابهه لكان مخلوقاً مثله ، إذ ماجاز على أحد المِثْلَين جاز على الآخر ، فليس له تعالى جسم ولا عرض ولا تحيز ولا جهة من الجهات ، ولا يتصف بأكل أو شرب أو نوم ، أو زمان أو تركيب أو بساطة ، أو اتصال أو انفصال ، أو دخول أو خروج ، ونفى كونه والداً أو مولوداً أو مكاناً ، كل هذا من صفات الحوادث ، وهو سبحانه غنى غنًى مطلقاً فلا يحتاج إلى أحد سواه أبداً ، إذ هو مستغنٍ عن كل ماسواه ، ومفتقر إليه كل ماعداه ، ولو احتاج إلى غيره لكان عاجزاً ، فكيف استغنى عن الخلق قبل خلقهم ، وهو سبحانه لم يتغير عما كان عليه ، وهو الآن على ماعليه كان . إذ ليس على الله شىء واجب ، إذ لو وجب عليه شىء لكان مُكرهاً على فعله ، بل هو سبحانه يفعل مايشاء ، أوجد الأشياء بإرادته ومشيئته ، إذ لم يكن هناك من يضطره إلى خلق العالم ، ولو كان هناك أحد يجبره أو يضطره لكان عاجزاً فلم يخلق شيئاً ويكون الذى اضطره هو الإله وذلك محال ، إذ قد ثبت أنه كان ولاشىء معه ، وخلق جميع ماسواه ، فحينئذ

لا يقال إن هناك من يجبره ، فهو تعالى مريد كل شيء من المخلوقات ، ولا يوجد شيء إلا بقدرته وإرادته ومشيئته وعلمه ، وهو سبحانه يفعل مايشاء ويحكم مايريد ، وربك يخلق مايشاء ويختار ؛ تعالت صفاته وتقدست أسماؤه ، لا تنقضي غرائبه ولا تنفذ عجائبه ، وهو سبحانه حي سرمدي الوجود ، لا يلحقه الفناء ، قديم لا أول لقدمه ، ولا افتتاح لوجوده ؛ أول بلا ابتداء ، آخر بلا انتهاء ، إن وجد الخلق فهو سبحانه موجود ، وإن انعدم الخلق فهو موجود ، لا يلحقه من وجودهم ولا من عدمهم تغير ولا حدوث ـ بل هو في تنزيهه وتعاليه كما يستحق لذاته حكماً ذاتياً غير مكتسب ولا معلول ، وليس هو سبحانه علة لشيء ، إذ لو كان علة لا نتفت عنه إرادته وهو محال . ثم إن إرادته سبحانه ليست معلولة لحكمة دعتها إلى الترجيح ، بل هي إرادة أزلية لا افتتاح لها ؛ فلا يقال لم يكن مريداً ثم أراد ، وإلا كانت حادثة وهو محال ؛ ولا يقال إن الباعث قديم ، إذ لا بد للإرادة من حكمة ، وإذا كانت الإرادة قديمة فالحكمة قديمة ، لأن إرادته سبحانه هي عين الحكمة ، والحكمة عين الإرادة ، وإذا لم يكن ثَمَّ غير الحق فاختيار الحق لشيء من الأشياء حكمة وإرادة ، إذ لم يكن هناك وضع متقدم على إرادته تعالى حتى يكون قديماً ويكون غير الحق ، وهو سبحانه واحد لا يتعدد في ذاته الأقدس وليس يشبه فعله فعل آخر ؛ خلق الخلق وأفاض عليهم الأرزاق ويسر لهم المصالح ، وأرسل الرسل لهم

بالبشارة والنذارة تفضلا ورحمة منه ، وهو سبحانه متفضل كريم .
وإن ورد فى الشرع مايشعر بالوجوب فإنما هو شىء أوجبه الحق على نفسه من باب تحتيم الفعل وأنه لا يخلفه أو ليطمئن الخلق ، أو لغير ذلك من الحكم ، وليس هذا من باب الواجب عليه لأنه تعالى إذا أراد أن ينسخ ماوعد به أو أوعد ، فلا استحالة فى العقل ولا يعجزه ذلك . وهو القادر أوجد العالم فلا بد أن يعلمه وهو العالم بجميع الأشياء (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وغاية مافى الأمر أن الله تعالى تكرم بشىء على عبده ، والكريم لا يبطل ماتكرم به ، وهو سبحانه أكرم الأكرمين ، ورحمته وسعت كل شىء ، سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

الإسراء

الإسْراء مِنَ السَرَيان ، فَمَن سَرَى بنفسه ، غير مَن أُسْرِىَ به ـ السَّارِى بنفسه سارٍ فيها ، ومن أُسْرِىَ بِهِ سَرَى منها ، وقد يكونُ فى الحالين سائراً فيها وسارياً منها ، وكل كائنٍ له بداية ونهاية ، أو لا نهاية فإذا سَرَى مِن بدايته طالباً لنهايته ، فسيره إنما يكون بانكشاف أعيان عوالمه ، وبتعرّف مراتبه وصفاته ، فيسير مِن مركز بَدْء صفاته ، إلى كلِّ تَعَيُّنٍ مِن تَعَيُّناته . وهو فى ذلك إمَّا مُرِيداً للتَّخَلِّى عن صفةٍ مِنْ صفاته وَتَبْدِيلها بوصف آخر ، وإمَّا مُؤَكِّداً وَمُثْبِتاً لتلك الصفة ليَتَحَقَّقَ بها ظهوراً وذوْقاً ، والصفات كامنةٌ بِحُكْمِ الاستعداد فى كل فِطْرَةٍ بِحَسْبِ الوَضْع ، ثم يطرأ عليها الكسْب بعد ذلك ، فربما يتعطّل الحِلْمُ الكامنُ فى الوضع بحكم الاستعداد ، وَيَتَقَوَّى الغَضَبُ الكامن بالاستعداد ، ثم إن كُمُونَ الأخلاق والصفات فى الجِبِلَّةِ بالاستعداد حُكْمُ وُجُودِ النخلةِ فى النَّوَاةِ بِحُكْمِ الاستعداد ، فَمَنْ وَقَفَ مع الظاهر كان سيره فى الكون من حيث الظاهر ، ومن خرج عن الظاهر فقد سار فى الظاهر ، حتى حَلَّ فى الباطن ، ثم إنَّ الباطن كل ما بَطَنَ عن العالم الذى قَبْلَه ، فيكون شهادةً لأهْله وغَيْباً عَمَّنْ هُمْ قَبْلَه ، والباطن يختلف باختلاف العَوَالِم ، فَمَنْ حَلَّ فى المَلَكُوت كان مَلَكُوتياً ،

ومَنْ حَلَّ فى البرزخ كان برزخياً ، ومَنْ حَلَّ فى الجَبَرُوتِ كان جبروتيا ، ومَن حَلَّ فى عالم الكرسى كان كرسياً ، وفى عالم العرش كان عرشياً ، وفى اللَّوح لَوْحِيًا ، وفى القلم قلمياً ، وفى الجنة جَنَانيا ، أوجَهَنَّمِيًّا ، أوصِرَاطِيًّا ، أو حَوْضياً ، أو مِيزَانيا .

وَمَنْ سار فى عوالمه الباطنة فهو سائر إمّا فى رُوحِهِ ، أونفسه ، أو عقله ، أو سره أو نوره ، أو ظلمته ، أو مَلَكِيَّتِهِ ، أوْ شَيْطَانَتِهِ إلى غير ذلك من عوالمه الباطنة ، والإنسان عالم صغير ونسخة من العالَمِ الأكبر ، كالصورة المُكَبَّرَةِ ، التى صُغِّرَت ، فليس بينهما فارق إلاّ فى الحجم ، ولكنَّ الصورةَ واحدةٌ ، وكل سير يكون فى صفة من صفات العبد الباطنة أو الظاهرة أو فى واحدة منهما إلى الأخرى إما تَرَقِّياً أو تَدَلِّياً ، وقد يكون السير فى صفات متعددة فى آن واحدة ، وكل إنسان له دائرة رُوحانية نفسانية سِرِّيَّةٌ ، وفى هذه الدائرة كل صفات الإنسان المتَطَوِّرةِ بها الرُوح ، وفيها صور العالم التى انْطَبَعَت فيها مِن المرئيات ، بالبصر الشَّحْمى الجِسْمَانى ، أو تَصَوَّرَتْ بنسبةِ المَرْئِيَّاتِ إلى المَسْمُوعَات ، فإن كل إنسان يسمع مالا يَرى يَقِيسُهُ على مايرى ، ولذلك كان كل إنسان يشهد البَوَاطِنَ الخارجة عن عالم الظاهر على قَدْرِ مايُعْطيه له الظاهر ، ومن كان الكون كله ظاهراً من سره ونوره كان سريانه فى الكون

سَرَيَاناً فى ذاته وسره ايرى من آيات ربه الكُبْرَى ، فى عوالمه العامة والخاصة ، ففى العامة يرى الجنةَ والنارَ والعذابَ والنعيمَ وبالخاصة يشهد تجلياتِ ربِّه ، ولا يكون ذلك إلا بعد انتهائه من سيره فى سره ونوره (وأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى) ولا انتها ·

وإذا سَارَ السَّارى فى نفسه من حيث باطنُهُ ورجوعُه إلى أصله، غاب عَن اعتباراته الظاهرة والمتقابلات المتباينة ، فإذا شهد اعتباراتِه فى سيره ولم يَغِبْ عنها كان واقفاً مع ظاهره ، فلم يَصِحْ له سيره فى باطنه ·

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ » أى تنزه ربك ذو العزة عن كل مايصفونه به من إضافة الولد والشريك وغير ذلك مما لا يليق بجناب الحق تعالى وتقدس .

وقد قال تعالى : « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » فيفهم منه أن الله تعالى أمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأمة تدخل فى الأمر ؛ لأنه أمر عام لم يرد فى الشرع مايخصصه برسول الله عليه الصلاة والسلام إلا ما كان من قبيل اختصاصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأمر بما يحتمله بحيث إنّ غَيْرَهُ مِنْ أمته ولا الأنبياء والمرسلين يحتملون مايقبله استعداد المصطفى عليه الصلاة والسلام بل تقول : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مأمور بأن يفعل كما أمر وذلك يفيد أن قابليته تحتمل الأمر كله إذ قال تعالى : « فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » . وقال تعالى: « فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا » . فلم يقم بالأمر حق القيام سوى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كلف الله رسوله بما يقبله أعظم استعداد فى الخلق وهو استعداده الذى لو جمعت الاستعدادات كلها لتلاشت فيه ولم تك بجانبه شيئاً مذكوراً فقال الله تعالى : « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » والتسبيح هو التنزيه »

فمن قال سبحان الله فهو بمعنى أنزه الله عن جميع النقائص ، وأعتقد له الكمال كله .

واعلم أن المسبح يسبح ربه مع أن ربه منزه فى ذاته وصفاته عن كل مالا يليق به ، وإذا كان منزهاً فما فائدة التنزيه ؟ هل المسبح يعتقد فى الله نقصاً ؟ فهو يسبح ربه أى ينزهه عن ذلك النقص وهو يستلزم الكفر .

وإذا كان المسبح لا يعتقد نقصاً بل لا يعتقد لله إلا كل كمال ، فهل يريد بالتسبيح تنزيه الحق عما يصفه به الكافرون ؟

وإذا كان الحق فى ذاته منزها بحيث إن ماينسبه إليه الكفار لا يلحقه منه شىء والمسبح المؤمن لا يعتقد إلا كمالا ، فما فائدة التسبيح؟ أى التنزيه .

فإن قيل : إن الله تعالى خلق عبده ليعبده ، ومن العبادة أن يسجد له ويركع ويقنت ويخضع ويذل له ويسبحه ويمجده ويهلله ويكبره فيكون العبد بذلك مظهراً ذله بين يدى سيده يردد اسمه على لسانه وقلبه مع التعظيم والاحترام ونسبة الكمال والجلال والجمال وإذا كان العبد يذكر ربه فالذكر مقرون بالثناء والحمد والشكر مع تعظيم الحق وتنزيهه ، وإذا أكثر الذكر مع ترديد التنزيه نشأت حالة استغراق للعبد فى عظمة الحق تعالى ؛ لأنه كلما قال سبحان ربى

العظيم مرة كان ذاكراً لعظمة سيده ، فإذا كررها وأكثر كان أشد ذكراً لها فإذا استوعب غالب أوقاته فى ذلك ملأ قلبه وكليته حتى سرى فى كل جزء من أجزائه فامتزجت بلحمه ودمه وشعره وعظمه وجلده وظاهره وباطنه وقلبه ونفسه وسره وروحه ، فكان غريق بحر العظمة الإلهية ، فإذا سجد ـ سجد على رداء العظمة وإذا استقبل واجـــه إزار الكبرياء ، فإذا اشتد ذلك غابت الأعيان والأعراض وطاحت المكونات وانقشعت عنه غيوم السوى وسحب الأغيار فنظر بنور بصيرته التى لم تتقيد بجهة من الجهات إلى الأنوار الأزلية القديمة ، وشاهد ربه بقلبه فى هـــذه الدنيا كما شاهده أهل الاختصاص من أولياء هذه الأمة الذين قربهم الحق إليـه واصطفاهم لحضرته .

قلنا هذا قول صحيح مقبول فالمسبح يردد اسم ربه مقروناً بالتعظيم والثناء والحمد وصفات الكمال فلا يعتقد أن الله متصف بصفات من صفات النقص وهو يسلبها عنه فالله تعالى منزه عن كل ذلك وهو متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ولكنه يعتقد أنه يردد اسم ربه مقروناً بالتعظيم وصفات الكمال يقصد بذلك أن يظهر تعظيم الله وتنزيهه بين يديه مع استشعار الخوف منه والرجاء فى رحمته فيكون بذلك عبداً لربه قائماً بما خلق لأجله فقد قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ » وهو فى هذه الحالة يستشعر التعظيم

ويشتد شعوره حتى يستغرق فيه .

وأما قول أبى يزيد البسطامى ـ رضى الله عنه ـ كنت أقول سبحان الله ، فنوديت فى سرى ياأبا يزيد هل فينا عيب حتى تنزهنا عنه ، فقلت يارب كيف أفعل فقيل له نزه نفسك عن النقائص .

قال فاجتهدت فى تصفية نفسى حتى صفت من كل ظلمة وكدر ولم نبق فيها شائبة فنطقت ذاتى نطقاً صريحاً بذاتها وقالت سبحانى ، ولم يرد الشيخ بذلك أن ذاته نطقت بألوهيتها بل أرادت ذاته بقوله سبحانى أنهـا تنزهت عن كل مالا يليق بالعبد وصارت صافية من الشوائب والكدورات ، فهذا القول لايخرج عما ذكرناه آنفاً ؛ إذ أن العبد مادام يسبح ربه تسبيحاً يفيد التعظيم والثناء ، وذكر صفات الكمال فإنه يستشعر ذلك بقلبه ولا يزال يكرر ذلك وفى كل مرة يخرج من قلبه تعظيم غير الله والركون إليـه ورؤيتـه تأثيره ويرى سوى الحق ضعيفاً عاجزاً لايملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ويشهد الكل فى قبضة الله ، ويرى نفسه غير قائم بواجب حق ذلك الإله العظيم فيخرج عن الركون إلى الخلق ولا يرجوهم ولا يخافهم ولا يفتتن بهم ، وهذا كله هو التصفية التى أشار إليهـا أبو يزيد ـ رضى الله عنه ـ ولـكنه كان له غير التسبيح أعمال شاقة كمنعها من شهواتها فإن السائرَ إلى ربه إذا كانت نفسه قاصرة على التسبيح أى التنزيه

وكانت النفس مشحونة بالخبائث ، فإنَّ سيرها يكون بطيئاً وتصفيتها تستغرق زمناً طويلا ، فإن صادفه أثناء هذا السير الطويل شيء منعه كفترة ووقفة ضاع عليه ماحصله من جمعية قلبه على ربه وربما وقع له ذلك ثانياً وثالثاً وهلم جرا وعلى ذلك ينقضى عمره ولا يصل إلى صفاء قلبه ، فلذلك ينبغى للسالك أن يسلك بنفسه المسالك التى تشق عليها حتى يضطرها إلى الوقوف على باب الله تعـــالى فى كل لحظة فتستمر جمعية قلبه على ربه فيدرك الصفاء فى زمن قليل ؛ لأن النفس إذا تركت تتمتع بشهواتها وتأتى من مبادىء التصفية مايحق عليها لا يأتى منها شيء فإذا ألزمها الصوم مثلا ضعفت فلا تجد لهـا شهوة الاجتماع على من يحملونه على الغيبة والنميمة والغفلات والبعد عن باب الله .

وكذلك إذا ألزمها الصمت وألزمهـــا الجلوس مع الفقراء والمساكين ، وكل ذلك يضطر النفس إلى السكون والرضى والتوكل والبعد عن الخلق ، ويفتح لهـا باب الخلوة بالله تعالى ، وفيه فعل مايحبه الله ويرضاه كالجلوس مع المساكين والرأفة بهم والاعراض عن ملاذ الدنيا وعدم النظر إليها . فالمسبح لله إنما هو سابح فى بحر من التوحيد وفى بحر من الأنوار وفى بحر من الظلمات وفى بحر من العوالم النورانية وفى بحر من العوالم الظلمانية وفى بحر من الأسماء وفى بحر من الصفات وفى بحر من الذات الإلهية ، وفى بحر من الذات

الخلقية ، وفى بحر من الأخلاق النورانية وفى بحـــر من الأخلاق الظلمانية ، وفى بحر من القرآن وفى بحار لا تحصى وليس هـذا محل تعريفها فالمقصود الاختصار وهذا يخرجنا عنه .

وإذا علمت أن السالك يسبح فى هذه البحار كلها فالذى لايكون سالكا طريق الهدى فإنه لا يسبح إلا فى بحار من الضلال والظلمات .

واعلم أن هذه البحار كلها حقائق ثابتة يراها السالك بحاراً حقيقية ويعبر كل بحر إلى ما وراءه من البحار ، ويرى فيه من العجائب والغرائب ماتقصر الألسنة ويعجز القلم عن وصفه فلا تظن أن السالك يرى هذه الأمور التى ذكرتها لك معانى لا حقائق وطريق الحق فيها مالا يرى الراءون ولا يسمع السامعون فإن كنت ممن يسبح فى بحار الظلمات ليخرج منها ومن بحار الأنوار حتى يرتقى إلى أكمل منها ، فأنت سـائر إلى ربك وإن وقف الإنسان عنـد ظلمة كان طريداً ـ والعياذ بالله ـ وإن وقف مع نور كان ذلك منعاً المزيد ووقفة فى سيره فلايزال به التسيار حتى يحل فى حضرة الخلاق بجناحى الحب والاشتياق وكم من إنسان لم يقل سبحان الله إلا على سبيل التعجب وقلبه غريق الغفلات ولو كان متعجباً ذاكراً مسبحاً لـكان ذلك سيراً له ، ولقد كان بعض الأشياخ الأجلاء إذا سمع إنساناً يذكر ربه على وجه الغفلة يدنو منه ويضع فمه على فمه حتى يتلقى الاسم من فيـه تنزيهاً لاسم الله تعـالى عن الغفلة .

وقال أبو سليمان الدارانى : من قال سبحان الله من غير تعجب ثلاث مرات جالت روحه فى الملكوت وعادت إليه بطرائق الحكمة. فعليك أن تجتنب أنْ تقول سبحان الله على وجه الغفلة عن الله فتسبح الله بلسانك وأنت محجوب عنه ، فلا تجعلها عند الغضب للتهكم ، فقد شاهدنا كثيراً من الناس يقول للآخر تهكماً : سبحان الله يا سيدى (بكسر السين وسكون الياء) فى طبعك فاحذر مثل هذا فإنه من أصعب الأمور ولا قوة إلا بالله .

واعلم أن الله تعالى أمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسبح اسم ربه الأعلى ، فهل التسبيح يكون للذات أو للصفة أو للاسم أو للذات المتصف بالصفات المسمى بالأسماء ، وإذا كان كذلك فما حكمة كون الله أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يسبح الاسم ؟

ويجاب بأن الاسم قد يطلق ويراد به المسمى ، فإنك إذا ناديت رَجُلاً وقلت له يا حسن فهل تريد أن تنادى اسمه أو تريد أن تنادى المسمى ؟ لا شك أنك تريد أن تنادى المسمى باسمه الذى يعرف به ، فإذا رآك قد ذكرت اسمه بصيغة النداء علم أنك تدعوه ، فالاسم فى هذا المقام يراد به المسمى قال تعالى : (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) وظاهر الآية يدل على أنهم يدعون الله أو الرحمن أو أى اسم من الأسماء الحسنى والداعى إنما يدعو ربه المسمى بالأسماء الحسنى فالاسم يراد به المسمى وإلا كان

الدعاء للأسماء وقوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) يفيد أن المسمى هو الذى له الأسماء الحسنى لا الاسم الله وإلاَّ كانت الأسماء أسماء الاسم الله أو الاسم الرحمن ، ولا قائل به ، ولا يخفى عليك أن الاسم هو عين المسمى عند علماء التوحيد ، وإذا كان الأمر كذلك فلا فرق بين أن يسبح اسم ربه ، أو يسبح المسمى ، ولا يخفى عليك أن أسماء الله تعالى قديمة ، وإذا كانت قديمة وهى ليست غير الحق لزم عليه تعدد القدماء ، وهو باطل فتعين أن الأسماء عين المسمى .

قال اللقانى رضى الله عنه :

وعندنا أسماؤه قديمة كذا صفات ذاته العظيمة

ثم إذا كان العبد لا يصل إلى إدراك كنه الذات الإلهية وكل ما يتصوره إنما هو بخلاف الحق تعالى لأنه سبحانه متعال عن أن يناله فكر أو وهم أو خيال أو عقل أو روح أو سر أو ملك مقرب أو نبى مرسل ، وإن الملأ الأعلى ليطلبونه كما نحن نطلبه وهذا كله من حيث معرفة الكنه فناسب أن يسبح العبد اسمَ ربه ويذكر اسم ربه ، فلو كان يتصور كنه الذات لسبح كنه الذات ، أو لو تصور ذلك لذكر كنه الذات ، ولكنه لمَّا لم يصل إلى الكنه سومح فى ذكر الاسم وأمر به ، وجعل ذلك تنبيهاً له على أنه لم يدرك كنه الذات ولا الصفات ، بل ولم يدرك كنه الأسماء . ولكنه وإن علم ذلك فهو يعتقد أنه يذكر الذات المتصف بالصفات المسمى بالأسماء ،

وأنَّ عقله وعلمه لا يصل إلى معرفة كنه الذات فيكون ذاكراً لذات الله وصفاته وأسمائه مع كونه يعلم أن الله قد عرفه عَجْزَه بقوله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) وقوله تعالى : (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) إذْ في ذلك تنبيه على أن ما عندنا من التسبيح والذكر إنما هو بالأسماء من غير أن نصل إلى كنه الذات قال تعالى : (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ) فانظر هل يفهم من ذلك أنَّ المطلوب ذكر الاسم أو ذكر المسمى .

لا شك أن المراد ذكر المسمى باسمه سبحانه وتعالى ، ثم إن الذاكر لا ينبغي له أن يقصد بذكر الاسم أن الاسم مستقل عن الذات ، أو الصفات بل يعلم أنه متى ذكر الذات فهو ذكر للذات والصفات والأسماء ، وإنْ ذكر الصفة فكذلك ، وإن ذكر الاسم فهو مثله ، ومن قصد ذكر الاسم مستقلا أو الذات استقلالا أو الصفة كذلك فهو فاسق معطل قد افترى على الله ربه .

وإذا علمت ذلك فالله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يسبح اسم ربه الأعلى بمعنى أنه يردد اسمه تعالى بصيغة التنزيه فيقول سبحان ربي الأعلى ، ولذلك التزمها رسول الله عليه الصلاة والسلام في سجوده امتثالا لأمر ربه ؛ إذْ كان عليه الصلاة والسلام خلقه

القرآن ، وما ورد فى السنة بصيغة سبحان ربى الأعلى يفيد أن الأعلى صفة للرب سبحانه وتعالى وعلى هـذا الوجه يكون الأعلى فى قوله تعالى : « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » صفة لرب لا لاسم .

واعلم أن العبد قد أمر بالسجود وهو إلصاق الجبهة ـ التى يظهر فيها وفى بقية الوجه كبرياء العبد وعزته وفخره وخيلائه ـ بالتراب ويعفر جبهته ووجهه فيكون بذلك قد ظهر ذله وخضوعه بين يدى مولاه وبشهد نفسه فى هـذا الوقت ذليلا مسكيناً بين يدى إله قادر عظيم له المجد والجبروت والملك والملكوت ، فيقول بلسان التسبيح والتنزيه سبحان ربى الأعلى وهـذا أقرب المواطن التى يكون العبد قريباً فيها من ربه لأنه قد تخلى عن منازعته لربه وذل وخضع بين يديه وأظهر عبوديته وافتقاره له ؛ وشهد من الصفات العليا والتنزيه الأعلى ، وإذا نظر الحق لعبده ووجده على هـذا الوصف أقبل عليه وأحبه وقربه واصطفاه لحضرته فانظر إلى هـذا الباب العظيم الذى هدانا الله إليه وعرفنا به فى الشرع القويم فلم نحفظه وصار كل واحد منا إذا أراد أن يصلى فرش له سجادة جميلة قـد زينت بالنقوش والصور المختلفة ولهـا من الألوان ما يميل إليه القلب ويتلذذ به المصلى ، أو جعل له حصيراً ليناً رقيقاً يشتغل به فى صلاته ويعجب به فضلا عن الأمور الدنيوية التى قد ملأت قلبه فيسجد لله وقلبـه عند زيد ويتفـكر فيما قاله عمرو ويدبر لآخر مكيدة ، وينوى أنه بعد الصـلاة يتشاجر مع

فلان ، أو يذهب إلى محل لا يخلو من معصية أو رؤية معصية ومخالطة أهلها ، وزد على ذلك أنه قد فعل كثيراً من الذنوب وربما كان غالبها من الكبائر الجسمانية أو الكبائر القلبية ، ويقوم للصلاة ولم يتب منها واجتهد فى الوضوء للطهارة الجسمانية وترك القلب مغموراً بنجاسات المخالفات والذنوب الكبائر ، ولو كشف الله له لوجد نجاسة المعاصى القلبية أشد من النجاسات الظاهرية ؛ إذْ أنَّ الوقيعة فى الأعراض وسلب الأموال بغير حق ، والكبر على خَلق الله ، وإيقاع الضرر بخلق الله وغشهم ، والمكر والدهاء وخبث السريرة والذل للأغنياء والنظر إلى امرأة غيره ، وغير ذلك مما يطول ذكره أكبر من خروج ريح يتوضأ منه بل إن واحدة مما عددناه أعظم من كل حدث يحدثه طول عمره وليس القصد أنه لا يتطهر بالماء ظاهراً فإن هذا من الفروض التى أمر الله بها وفيه من الحكم والمنافع مالا يحاط به ، وعلى كل حال فهو أمر تعبدى أمرنا الشارع به فنفعله ، وإن لم نعقل له معنى ، ويتقرب به إلى الله لامتثال أمره ولكن القصد أنا نرى الإنسان جعل همه قاصراً على الطهارة الظاهرية التى هى وإن أمر الله بها ولكنها بالإضافة إلى فروض أخرى أقل منها فنجد الشخص يستنجى بما يكفى لغسل عدة رجال ويتوضأ بماء كثير كذلك وتراه يبالغ فى الاستنجاء والغسل والوضوء ويشدد فيه تشديداً لم يرد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا عن أصحابه ،

ولا عن أئمة الهدى ، ويصرف فى الوضوء ما يزيد على قربة ماء وربما توضأستة رجال وهو لم يفرغ من وضوئه ، وينفتح عليه باب الوسوسة والشك فى وضوئه وغسله حتى يتمكن منه ، ويصير يستغيث ولا يجد له باباً للخروج من هـذه المصيبة ؛ لأن الشيطان لما وجده مطاوعاً له فى كل مايوسوس له به فى طهارته صار يلقى إليه شبهة فى كل جزئية من الطهارة وهو يقبلها حتى اعتاد ذلك وصار له غريزة ويعانى من الحرج والمشقة مالا يوصف ولا يقدر وربمـا ترك بعضهم الصلاة لمـا يعانيه من الوسواس ، ولقد يأتى الوسواس لبعضهم فى قراءته أثناء الصـلاة فيصرف همـه إلى تحقيق النيـة أو مراعاة مخارج الحروف فتجده يردد النيـة مرات متواليـة حتى يسأم هو ويسأم الناس منه وربمـا حلف بعضهم بالطلاق أنه نوى وربمـا صلى غالب الصلاة ثم يطرأ عليه الوسواس فى النيـة فيبطل الصلاة ويستأنفها ، وقد يردد بعضهم الـكلمة من الفاتحة مرات كثيرة يقصد بذلك تحقيق مخارج الحروف مع الترقيق والتفخيم والمد الطبيعى واللازم والغن والتشديد وهو يتغالى فى ذلك ويخرجه عن الحـد المطلوب فى الشرع بل تصير قراءته مثلة بحيث لو سمعه إنسان لأخذه العجب والاستغراب .

إذ يقول فى قوله تعـالى : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » اهدنا (الص اهدنا الص اهدنا الصرا) ولا يزال يردد ألفاظاً لا معنى لها كهذه حتى إذا فرغ من الفاتحة رأى أنه قد خرج من ورطة عظيمة وخرج من

هذه المعمعة صحيحاً سالماً بل قد يؤدى هذا الحال بعضهم إلى دخل فى عقولهم ، واضطراب فى أفكارهم ، والعجب منهم أنك إذا أردت أن تنصح لأحدهم يراك جاهلا بل ربما ضحك منك وقال لك : إن هذا هو المذهب ومَن لم يفعل هكذا فصلاته باطلة ، وأعجب من هذا أنهم يرون صلاة جميع المسلمين باطلة إذْ لم يشددوا مثلهم ويفعلوا كفعلهم .

وهذا هو الهوس والجنون بعينه ، ولم ينقل لنا عن أحد من السلف أنه كان يفعل كذلك والدين يسر لا حرج فيه ولا مشقة وهو مبنى على دفع الحرج والمشقة بل القاعدة هى العفو عن كل مافيه حرج يتعذر الاحتراز عنه ومذاهب أئمة الهدى أنه يعفى عن ظن الشارع ولو كان الإنسان قد تيقن نجاسته ، وقد قال بعضهم : إن التدليك من الفروض ولكنه مستحب لا فرض بين أصابع القدمين ، فإذا توضأ الإنسان وغسل رجليه لايفرض عليه تدليك ما بين أصابع رجليه وإنما هو مستحب ؛ لأن أصابع الرجلين لما كانت متلاصقة كانت كعضو واحد ولما كان الدين يسراً لم يفرض تدليك مابينهما بل جعله مستحباً ، وإذا نظرت إلى ماعفى الشرع عنه لدفع المشقة تجد أن الدين قد بنى على دفع الحرج كالمرضع التى تجتهد والرجل الذى يمسح حتى يبرأ وما يماثل ذلك ، فليت هؤلاء القوم قد توضئوا كما أمر الله ورسوله من غير غلو فاحش كما يفعلونه ، وصرفوا همتهم إلى تطهير

بواطنهم من النجاسات المعنوية فإننا نقوم إلى الصلاة من غير توبة من الذنوب التى وقعت منا بل نقف بين يدى الله مصرين على هذه الكبائر ؛ إذ لم يحصل قبل الصلاة تندم على ماوقع منه ولا عزم على أنه لا يعود إليها بل قد يصلى وهو عازم على فعل شىء منها بعد الصلاة .

فانظر كيف يقوم الإنسان بين يدى ربه يطلب منه الرحمة واللطف وهو متضمخ بالنجاسات القلبية التى يراها ربه ظاهرة منكشفة بل كيف يقف بين يديه وهو عاص لأمره أو تقول كيف يقف بين يديه مستعطفاً مسترحماً وهو محارب لله ورسوله أو كيف يقف وهو لا يعبأ بما أمر به بل كيف يقف بين يدى سيده مصادقاً لعدوه وهو الشيطان وإخوان السوء بل كيف يقف بجسمه وقلبه ملتفت إلى غيره بل كيف يقف بين يدى سيده وهو منازع له متكبر مختال محتال مداهن مراء لا يثق بما وعده الله ولا يتوكل عليه ولا يفوض إليه أموره ، ولا يفعل ماأمره ربه ولا يجتنب ما نهاه عنه .

ومن أعجب العجب أنك إذا نصحت أحدهم وعرفته كل ذلك يقول لك : إن الله غفور رحيم ويقول : إن شفاعة المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأهل الكبائر من أمته . نعم هذا قول حق أريد به باطل فهو أورد هذا لأجل ألا يتوب من ذنبه ولأجل أن يحسن إصراره على الذنوب فلا يخرج منه أبداً وما يدريه المسكين مايقع له إذا كان

قد سعى فى هدم شريعة رسوله عليه الصلاة والسلام ورضى بأن يكون مع الخوالف . وهل ماأورده يبطل قوله تعالى : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُه جهنم » وهل يرد قول الله تعالى : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ » هل يرد قوله تعالى : « وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَاسَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى » هل يدفع قول الله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ » هل يرد قول الله تعالى : « ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » هل يرد قوله تعالى « وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » هل يرد قوله تعالى : « وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

وإذا كان الأمر كما ذكره هـذا القائل فأين التحذير من الشيطان ؟ وما فائدته ؟ وما هو الوعيد الذى ورد فى تارك الصلاة ولعنه وقاطع الرحم والزانى ومدمن الخمر وعاق والديه ، وأمثال هذه المعاصى لاسيما الذنوب التى يكون فيها للخلق حق ؟ .

لاشك أن مَنْ تَرَكَ فعلاً أمره ربه به ولم ينته عما نهاه يكون مجترئاً على الله غير مبال بأمره ولا نهيه مطيعاً للشيطان ولهواه والمؤمن مَنْ سَرَّتْهُ حسنته وساءته سيئته ولاَ يخفى عليك أَنَّ الله

قد خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حراً قرشياً ، وقد ثبت أن من لم يحب أحد أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرد على حوض النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل ربما طردَ عنه .

وعلى فرض أنه دخل فيمن شفع فيهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهل ضمن لنفسه أن الشفاعة تكون له قبل أن يدخل النار ؟ أو ممن يخرجون بشفاعته عليه الصلاة والسلام وما مقدار ما يمكث فيها ؟ هل يكون ألف سنة أو أكثر أو أقل ؟ فالعاقل من خاف ربه وفعل ما أمره واجتنب ما نهاه عنه وبعد ذلك يظن في الله خيراً لا أن يستحسن المعاصي ويزين لنفسه الإصرار عليها ، ويتمنى على الله الأماني ، ويقوم بين يدي ربه يصلي وهو مشحون بالمخالفات وقاذورات المعاصي مصادقاً للشيطان مصراً على الذنوب ولم يتب منها ويظن أنه يناجي ربه .

لاشك أن صلاته تلف كالثوب الخلق ويرمى بها في وجهه نسأل الله السلامة بمنه وكرمه ـ إذا علمت ذلك عرفت أن الإنسان إذا توضأ فأحسن وضوءه وتاب من ذنوبه وندم على ما فرط منه وعزم على ألاّ يعود ودخلَ في الصلاة طاهراً جسمه وقلبه ظاهره وباطنه خائفاً من ربه راجياً رحمته ويشهد كأنه يرى ربه فإنه إنْ لم

ير ربه فالله يراه من حيث لا يراه العبد فيقرأ كلام ربه بتدبير وخشوع وقلبه حاضر فى صلاته بين يدى مولاه فإذا أراد القلب أن يعرض عن الله ألزمه العكوف على الوقوف بباب سيده ، فإذا ركع ازداد خضوعه فإذا سبح ربه شهد عظمة ربه واستشعر ذلك فإذا سجد فقد بلغ أعلى مقام يكون قريباً فيه من ربه فيقول سبحان ربى الأعلى فيشهد أن الله قد اتصف بكل كمال وأنه قد تنزه عن كل نقص وأنه ذليل بين يديه فقير لرحمته ، فينظر الله إليه ويتولاه بعنايته ويستجيب دعاءه ويزيده نوراً وهدى ويكون الله وليه وناصره وحارسه وحافظه ومدبراً أموره ويرد عنه عدوه ويزيده من فضله وإحسانه كرماً وجوداً وامتناناً .

واعلم أن الله تعالى وإن كان قد أمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسبح اسم ربه الأعلى فقال صلى الله عليه وسلم سبحان ربى الأعلى ولكن هذا لا يمنع من أن الله تعالى قد أمره بأن يذكر الاسم الأعظم وعلى هذا الوجه يكون الأعلى فى قوله تعالى سبح اسم ربك الأعلى صفة للاسم وقد ورد فى كثير من السنة مايفيد أن لله تعالى اسماً أعظم .

واعلم أن أسماء الله تعالى وإن كانت كلها عظيمة ولكن هناك أسماء لها تأثير شديد فى انفعال بعض المكونات فلذلك يقال لكل

اسم منها إنه أعظم ـ وتسميته بأعظم من باب تسمية آية الكرسى بأنها أعظم آى القرآن وإنْ كان القرآن كله كلام الله ولا يفضل بعضه بعضاً ولكن لما كانت آيةُ الكرسى مشتملة على أسماء الله وتوحيده وإظهار عظمته وتنزيهه وغير ذلك مما هو لله تعالى ورد الشرع بأنها أعظم آى القرآن ، ومن قارن بين (تبت يدا أبى لهب) وبين (آية الكرسى) قال بأن آية الكرسى أفضلُ من سورة أبى لهب من جهة ماتشتمل عليه كل واحدة منهما لا من حيث أنهما كلام الله ؛ إذْ من هذه الحيثية هما كلام الله ولا تفضل إحداهما الأخرى ، وإذن يكون الله تعالى قد أمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يذكر الاسم الأعظم بالتنزيه والتسبيح ، وذلك لأن رسول الله عليه الصلاة والسلام أفضل المخلوقات وقد علمه الله هذا الاسم وأمره أن يسبح ربه وهذا لا يمنع من أن النبى عليه الصلاة والسلام يعلمه لمن يرى فيه الأهلية من أصحابه ، وقد يكون هذا أمراً بإظهار التسبيح بهذا الاسم بعد أن كان النبى عليه الصلاة والسلام يذكره سراً وهذا من إكرام الله لأمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمن أنكر اسم الله الأعظم فقد غاب عن ماورد عن رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم ورد عن بعض الأئمة أنه قال : كل أسماء الله عظيمة وهو قول حق ولكنهم أرادوا بذلك الأسماء من حيث هى أسماء الله لا من حيث ماظهر لبعضها من التأثيرات من باب أن آية الكرسى أعظم

آى القرآن وأن (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن وغير ذلك مما ورد ، ثم إذا كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أشهده الله سريان الأمر الإلهى فى المكونات كلها علويها وسفليها ظاهرها وباطنها ، وأشهده قيام الكل بالله وأشهده تجليات أنوار ذاته وصفاته فكان مشهده عليه الصلاة والسلام فأينما تولوا فثم وجه الله ـ أمره تعالى أن يسبح اسم ربه الأعلى الذى يشهد سريان سر أمره فى المخلوقات كلها ، وكلما ازداد عليه الصلاة والسلام تسبيحاً وتنزيهاً ازداد شهوده تجليات أنوار الجلال والجمال والكمال ، فيزداد فى كل لحظة علماً ورقياً فى العلم بالله تعالى وسعة إطلاق علمه وقدرته ومشيئته وللآخرة خير لك من الأولى وهذا كان شأنه عليه الصلاة والسلام فلذلك كان ترقيه فى الله مستمراً فى الدنيا والآخرة .

واعلم أن التسبيح باب عظيم لتفريج الكروب واستجلاب رضى الله تعالى واستغفار من الذنوب وخروج من مقام إلى مقام أعلى منه فيكون ترقياً ، وانظر إلى قوله تعالى : « فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ » .

وانظر إلى قوله تعالى : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » فذكر الله له التسبيح وأنه لولاه لم

يخرج مما كان فيه إلى يوم القيامة ، فلذلك أمر الحق تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يسبح اسم ربه الأعلى ، وهـــو وإن كان عليه الصلاة والسلام لم يقع فيما وقع فيـه يونس ولـكن أراد الله تعالى أن يزيده رقياً بالتسبيح وأن يرفعـه فى كل لحظة إلى مقام أرفع مما كان فيه قبل لحظة التسبيح .

ولقد قال صلى الله عليه وسلم : «لاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونس بن متى» وقد أجاب إمام الحرمين عن هذا الحديث بأن يونس عليـه السلام كان فى ظلمة الليل . فى ظلمة بطن الحوت . فى ظلمة البحر فنادى فى هذه الظلمات الثلاث ربه فسمعه الحق ونجاه مما كان فيه ، والمصطفى عليه الصلاة والسلام كان فوق سبع سموات عند العرش ونادى ربه فأجابه ويفهم من ذلك أن الحق تعالى لا تقيده جهة ولا مسافة ولا يغيب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

ثم إن الله تعالى لما أراد أن يقرىء نبيه فلا ينسى إلا ماشاء الله أمره بالتسبيح والتنزيه شاكراً لله على هذه المنة الجسيمة والنعمة العظيمة .

ثم إن التسبيح يـكون باسم ربه الأعلى فيـكون التقدير سبح اسم ربك الأعلى أى سبح ربك ونزهه بذكر اسمه مقروناً بذكر خلقه وتسويته للخلق وتقديره وهداه وإخراجه المرعى إلى آخر النسق .

واعلم أن الاسم من السمة وهى العلامة ، والعلامة هى صفة فيكون الاسم صفة الموصوف على هذا التقدير أو أن الاسم من السمو وهو العلو فيكون على هذا صفة أيضاً وليس المراد أن الاسم يخرج عن الإسمية وإنما المراد أن يكون من أسماء الصفات أى التى تدل على الصفات .

واعلم أن التسبيح قسمان : قسم فطرى لا يخلو منه مخلوق وهو الذى وردفيه قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » ، فالشجر والحجر والبحار والحيوانات والنباتات والأفلاك والسموات بل كل ذرة من ذرات المكونات كلها مسبحة لله تعالى وكذلك الإنس والجن حتى الكافر والكفر .

وهذا التسبيح يظهر لمن كشف الله له عن حقائق الأشياء فرآها كما هى فتجد صاحب هذا المقام يشهد لكل صامت وناطق تسبيحاً خاصاً يسمعه بأذنه ولكنه فى الحقيقة من الأحوال الروحانية ، فالسمع هو للروح ولكن الروح لما خرقت أكوان العبد وعوالمه من الباطن إلى الظاهر وغابت قواه السمعية الظاهرية فى القوى الروحانية الباطنية كان الحكم للروح فيظن السامع أنه يسمع بأذنه الظاهرة وإنما هو سمع الروح اخترق من الباطن إلى الظاهر وهذا التسبيح حقيقة من الحقائق وليس كما يقال إنه تسبيح بلسان الحال وكيف يخبرنا الحق

صريحاً بأن الأشياء كلها مسبحة ونحن نقول إنها لاتسبح ونقول غاية مافى الأمر أن لسان حالها ينادى بأن الخالق لها موجود حكيم قادر ونصرف معنى التسبيح .

ومن تأمل قول الله تعالى : « وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » علم علماً لاريب فيه أن المخلوقات لها تسبيح حقيقى وإننا لانفقهه فإذا كنا لانفقه التسبيح فلا أقل من اعتقاده لا أن نصرفه إلى لسان الحال ، ثم إن قيل إنَّ تسبيح الجمادات يلزم منه القول بأن لها أرواحاً إذْ لايَعقِلُ الحجرُ تسبيحه إلا بروح فيه وإذاً يكون الحجر حياً ولا قائل به ، فيجاب بأن كل مخلوق خلقه الله تعالى إنما هو حى وله روح بجسمه ولكن روحه ليس من جنس أرواحنا وهى روح ناقصة بالإضافة إلينا فضلا عن أن هذه الروح لايظهر لها أثر فى هـذا العالم فهى لاتدرك كل مايدركه الإنسان ولا تدبر الجسم ، والمدار فى هذا العالم على الإنسان فما أدركه الإنسان قيل له ظاهر ومالم يدركه قيل له باطن ، وإذا شاهدنا الأحجار وبقية الجمادات لانرى لها حركة إلا إذا حركها الإنسان وهذا لا يلزم منه القول بأنها لا روح لها لأن عدم الرؤية بالعين البصرية لايستلزم منه ذلك بل إننا نجد الإنسان المغشى عليه لايتحرك ولايعقل مع وجود الروح فيه ثم إذا تطور الشيطان حجراً لايلزم عليه أنه لاروح له بل هو فى عين التطور بالحجر له روح محققة ، وكذلك إذا رأينا الميت فى قبره ولم نشاهد سؤاله ولاتعذيبه

ولا نعيمه ولا يسوغ لنا أن نحكم بعدم السؤال والعذاب والنعيم مع أن كل هذه الأمور محققة واقعة يراها الميت بروحه وجسمه ولا يقدح فيها عدم الرؤية ، وإذا كان الحصى قد سبح فى كف النبى - صلى الله عليه وسلم - وفى كفوف بعض أصحابه وقد سمعه الجم الغفير فى المجلس فهو صريح فى تسبيح الجمادات والذى يقدر على ذلك قادر على أن يجعله فى كل مخلوق لاسيما قد قال بعضهم : إن التسبيح حاصل فى الحصى قبل أن يضعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى كفه وإنما المعجزة هى فى كشف التسبيح حتى يسمعه الحاضرون ، وإذا كان الحق قد أخبرنا بالتسبيح وكشفه لنا فى كف رسوله عليه الصلاة والسلام فهل نقول بعد ذلك إنه بلسان الحال ، وإن قيل إن الله تعالى قد خلق هذا التسبيح فى الحصى وقت وضعه فى كف رسول الله عليه الصلاة والسلام معجزة له وإن الحصى لم يكن قبل ذلك مسبحاً قيل إن الإصرار على عدم التسبيح بعد إخبار الله لنا مدفوع ولا وجه له ولا يقويه من الشرع شىء بل الشرع على خلافه . وأما القول بأن الله خلق التسبيح فى الحصى فى كف رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فلا دليل عليه أيضاً ولم ينشأ ذلك إلا من عدم سماع التسبيح فاستبعد العقل وقوعه لاسيما إذا قيل إن التسبيح كلام مسموع بحروف وأصوات سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهذا يقتضى أن يكون للحجر فم ولسان ؛ إذ أن ذلك يقوى أن الجمادات مسبحة بلسان الحال لا بلسان المقال .

واعلم أن هذا القول لا تحقيق فيه أيضاً ، إذْ أن المراد بالتسبيح ليس هو التسبيح المعروف بيننا بالفم واللسان ، وإنما هو تسبيح باطنى لا يشاهد لنا وليس من جنس عالمنا ، وإنما هو تسبيح خاص بالجمادات ، فنحن فى عالم وتسبيح الجماد فى عالم آخر ، وإنما الذى يحتاج إلى الفم واللسان فى التسبيح هو الحيوان ، وإذا لم يكن الجماد حيوانا فتسبيحه لا كتسبيح الحيوان ، وإذا قلنا إن التسبيح يقتضى روحا من غير جنس أرواحنا ووجود الروح يقتضى حياة ليست كحياتنا ، ووجود الروح لا يقتضى حركة الجماد ، لنفسه يلزَم عليه أن التسبيح أمر حقيقى بلسان المقال بدليل تسبيح الحصى فى كف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن الاحتياج إلى الفم واللسان فى التسبيح مبنى على قياس الجمادات على الإنسان فضلا عن عدم خلو هذا القول من جدليات الفلسفة التى تؤدى إلى التشكيك فيما ورد عن الله بزخارف القول المزيفة ، حتى إن بعضهم قال بأن الله تعالى خلق حروفاً وأصواتاً فى الحجر هى التسبيح وما آداه لذلك إلاَّ التغلغل فى الفلسفيات والسفسطة ، وإن تسبيح الجمادات ليس كتسبيح الحيوانات ولا الإنسان ، ولكن إذا كشف الله عنه للإنسان سمعت الروح الإنسانية ذلك التسبيح بغير حرف ولا صوت ؛ إذْ أنَّ الروح كما علمتها ليست بجسم ولا عرض ، ولكن الله تعالى أراد أن تسمع الروح تسبيح الجمادات بسمعها الروحانى المجرد ، وبسمعها الروحانى

المتحد بالجسم الذى يكون مظهره الأذن ، فوصل التسبيح إلى الروح بحسبه من غير صوت ولا حرف وإلى الأذن بحسبه بحروف وأصوات فسمعه الحاضرون ، إما بأن تكون أرواحهم قد اتصلت بتسبيح عالم الجمادات أو اتصلت بروح من اتصل بتسبيح عالم الجمادات وحمله حال ذلك المتصل على جناح روحانيته إلى الاتصال بتسبيح عالم الجمادات من حيث السماع الروحانى المتحد بالجسم .

واعلم أن هـذه المسألة من المسـائل السمعية التى تثبت بالشرع ، وقد مر عليك من أدلتها الشرعية قول الله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَـكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » . وكذلك تسبيح الحصى فى كف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفوف أصحابه .

وكذلك حنين الجزع الذى كان يخطب عليه صلاة الله وسلامه عليه فلما وضعوا له المنبر حن الجزع له ، وكان له جؤار كجؤار الثور وسمعه جميع من فى المسجد ولم يزل هكذا حتى ضمـه النبى عليه الصلاة والسلام ، فقر لوقته وسكن ، وأخبر رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه خيره بأن يكون فى الجنة فاختارها .

فانظر إلى الحنين وإلى سكونه عند الضم ، وإلى تخيره واختياره هل يتأتى ذلك من غير من لم يكن له علم يعقل به . ذلك غاية الأمر أنه ليس كما يعقل الإنسان ، بل هو من عالم آخر .

وكذلك الحجر الذى كان يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريق مكة ، وكلام الذراع له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكيف أن الأرض تشهد يوم القيامة لمن يفعل الطاعة ولمن يفعل المعصية ، وانظر إلى الجلود كيف تشهد هى والأرجل والأيدى على أصحابها ، وكيف أن الدنيا تنادى كل يوم من كان فيها ، وكذلك الأيام تنادى كل يوم ، وكذلك ما ورد عن الله تعالى ، وهو قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » .

ولا وجه للقول بأن الله تعالى قال لأهل السموات والأرض لا للسموات والأرض ، لأن هذا تأويل على أن السموات والأرض لا تعقل النداء فلذلك صرفوا ذلك إلى أهلها ، وإذا كان الله تعالى قد أخبر بأنه أمر السموات والأرض فلا يصرف ظاهر النص بمجرد دليل عقلى لم يحط بحقائق الموجودات ، وإذا كان الله تعالى قد جعل للإنسان روحاً فلم لا نقول بأن الله تعالى قد جعل للسموات والأرض أرواحاً تعقل بها أمر ربها وتسبحه ، بل تعرف خالقها وتطيعه ، وما قلناه من أن الله تعالى جعل لها أرواحاً تعقل بها مبنى على أنها تعقل أمر ربها ، ولقد قال الله تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا

وَأَخْرَجَتْ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ، وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَالَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » ، فانظر إلى أن الله تعالى أوحى إلى الأرض ، وإذا قيل إن الله تعالى يريد بالوحى الإلهام ، كما فى قوله تعالى : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ » . قيل هـذا يفيد أنها تلهم وكل من يلهم يعقل ، وهـذا هو الذى نقوله من أنها تعقل أمر ربها وتسبحه ، وإذا كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أخبرنا بأن الموت يؤتى به يوم القيامة فى صورة كبش ويذبح بين الجنة والنار فلم نستبعد أن تكون الأرض تعقل أمر ربها ؟ وإذا ثبت فى الشرع أن الشمس تسجد كل ليلة تحت العرش ثم تؤمر فتطلع ، فليس ببعيد أن تكون مسبحة بلسان المقال تعقل أمر ربها ، ولقـد ورد فى الشرع كثير من هذا القبيل بل الشرع مشحون به مثل : ضمة القبر للمؤمن برفق وكلامه له ، وضمه للكافر بعنف ، وأن العمل الصالح يتصور للعبد فى القبر فى صورة حسنة ، والعمل السىء ضده ، وأن الجبال كانت تسبح مع داود عليه السلام ، قال تعالى : « يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ » . وما ورد من أن رسول الله عليه الصلاة والسلام دعا لبعض أصحابه فأمنت الأشياء على دعائه ولو أردنا أن نؤول كل هذا ونقول إنه بلسان الحال لأفضى ذلك إلى ضياع حقائق كثيرة فى الشرع ،

وهـذا لاينبغى فى دين الله طوعا للعقل الذى يضيق عن تصور أقل شىء من الكائنات ، ولو نظرنا إلى مذهب السلف ـ رضى الله عنهم ـ لقلنا آمنا بمـا ورد عن الله ورسوله على مراد الله ومراد رسول الله ، ونكل علم ما لم تصل إليه عقولنا إلى الله تعالى ، ونقول إن للحصى تسبيحاً ، وللجماد كلاماً ، وللارض والسموات إتيانا ، وللموت ذبحا وللجلود وللأرجل والأيدى كلاما ، وهكذا نقول فى كل ما ورد عن الله ورسوله مما لم تصل عقولنا إليـه .

هذا على فرض أن العقول لم تصل إليه ، وإذا كان الأمر ممكن التصور والتعقل ، فالإيمان به واجب ولا يكون من قبيل المتشابه بل من المحكم والظاهر ، فإن قيل إذا كان الجمـاد له روح لا كأرواح بنى آدم ، وله حياة خاصة به ليـت ظاهرة لنا وتسبيحاً فى عالمه ، والجسم ضرورة من عالم الجمادات فإن كان له روح من غير جنس أرواح بنى آدم لزم عليه أن يكون فى الإنسان روح أخرى غير الروح الإنسانى وهل كل جسم بنى آدم له روح واحـد من غـير جنس أرواح بنى آدم ؟ أو كل جزء من بنى آدم له روح ؟ أو كل جوهر فرد له روح ؟ وعلى ذلك يـكون فى الإنسان أرواح لا تنحصر من غير جنس أرواح بنى آدم ، لأنه إذا قيل إن جسم بنى آدم له روح واحـد من غير جنس روحه الإنسانى ، ثم تفرق ذلك الجسم بأن قطعت يداه أو رجـلاه أو تفرق بالموت فلا بد أن يقوم بكل عضو بل بكل جزء

بل بكل جوهر فرد روح من غير جنس الروح الإنسانى ، وعلى ذلك هل يكون للجمادات كلها روح واحد أو أرواح متعددة ؟ وهل كما تفرقت الجمادات أو اتصلت تتعدد الأرواح وتتحد ؟ وهل هذه الأرواح التى من غير جنس الروح الإنسانى غير الملائكة التى تنزل مع المطر وتكون مع النبات أو الحفظة أو المعقبات ؟ .

وإذا كان الجسم جماداً وله معرفة بربه وتسبيح له ، وطوع وإتيان وغير ذلك من صفات الحى ، فما فائدة الإنسان ؟ ويجاب بأن أرواح الجمادات ناقصة عن الروح الإنسانى ، ولم يجعل الله له ظهوراً فى هذا العالم ، ولا يدبر شيئاً فى هذا العالم ، ولا يحمل التكاليف الشرعية ، وقد تقدم لك أن الجمادات إذا كان لها أرواح فما فائدة الروح الإنسانى لأن جسم الإنسان من حيثما هو جسم جماد . وهل للجمادات كلها روح واحد أو أرواح متعددة ؟ .

وقد تقدم لك صدر الجواب عن ذلك ، وكمال الجواب أن الأكوان كلها مخلوقة من نور الحقيقة الأحمدية المحمدية ، ولا يخفى عليك أن الحقيقة الأحمدية المحمدية جوهر فرد لا ينقسم ، وإن تعددت مظاهرها بتعدد المكونات التى خلقت منها كالعرش والكرسى والسموات والأرضين والجنة والنار والدنيا والآخرة والإنسان والحيوان والإنس والجن والملائكة وغير ذلك من العوالم التى يضيق المقام عن عدها ـ فلا يقال : إن الله تعالى جعل

النور المحمدى أجزاء وفرقه أقساماً إلا من حيث المظاهر والصور ولو قيل : إنه تفرق وانقسم لكان النور المحمدى من جنس عالم الأجسام والموادحتى يجوز عليه الانقسام ، وأنت قد عرفت أنّ الحقيقة الأحمدية والنور الأول قد خلق منه كل شىء من أرواح وعرش وكرسى وغير ذلك فهو أعلى من كل هذه العوالم ، ولو كان جسما لم يخلق منه الأرواح ، ولو كان روحاً لم تخلق منه الأجسام ، فإذن لا يكون جسما ولا روحاً ، بل هو أعلى منهما ومن كل العوالم التى خلقت من ذلك النور المحمدى .

إذا تقرر ذلك فكل مخلوق هو مظهر من مظاهر الحقيقة الأحمدية المحمدية ، وستر من ستورها وقشر على لب سرها ، وتعين من تعيناتها ، وصورة من صور وجوهها ، وحرف من حروف مدادها ونوع من تنوعات تفصيل إجمالها ، وظهور من بهم بطون خفائها ، فكيف يقال بعد ذلك إن الجمادات لا تعقل أمر ربها ، وهى مكونة من فيض سر الحقيقة المحمدية ، فوجود الأشياء بهذه الحقيقة يعلم لك أنها تفهم وتعقل وتسبح ربها ، ولا تستبعد قولنا أن لها أرواحاً من غير جنس أرواح بنى آدم ، وهذه الأرواح هى وجود سريان الحقيقة المحمدية الأحمدية فى كل شىء ؛ إذ لولاها لما تحقق موجود ولما كانت الأشياء تعقل وتسبح ، فالحقيقة الأحمدية مسبحة من حيث الجملة تسبيحاً لا تعقله إلا هى ويعلمه ربها ، ولها تسبيح خاص من مجمل هذا

التسبيح العام ، وبظهر كل تسبيح خاص بحسب كل مظهر ومجموع الوجوه الخاصة كلها بكل تسبيح خاص هو المظهر الأكبر بالتسبيح الكلى .

وكما أن للحقيقة المحمدية الأحدية حياة عامة ، فكذلك يكون للحياة العامة وجوه حياتية فى كل مظهر حياتى خاص ، والمظهر الحياتى العام هو كل مخلوق ؛ لأن الحياة العامة للحقيقة الأحدية المحمدية سارية فى كل مظهر لها ، ومجموع المظاهر الحياتية هو المظهر الأتم الحياتى للحقيقة الكلية .

وهناك مظاهر حياة خاصة تظهر فيها الحياة بأجلى مما هى فى غيرها وهى الحيوانات والإنسان والجن والملائكة ، وهذه الأنواع بأنها من الحقيقة الكلية من مظهر الحياة أكثر من حظ غيرها حتى يحسب من ليس له علم أن حياته مستقلة ، ويحصل النزاع منه لربه فى ذلك . ومن هنا احتاج الإنسان والجن والملائكة إلى رسل تأتيهم لكى لا يقعون فى هذا النزاع والجهل بالحقيقة الثابتة ، والملائكة مكلفون وداخلون فى رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو أراد الله أن يسلبهم الملكية لسلبهم حتى يكونوا كالبشر وحينئذ تقع منهم المعصية ، ولكنهم ماداموا ملائكة فقد أخبر الله عنهم بقوله تعالى : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » .

ومما يدلنا على سريان سر الحقيقة الكلية الأحدية المحمدية فى كل

شيء ، وأن كل شيء يعقل أمر ربه ويسبحه زيادة على ما مر عليك قبل هذا ـ قوله تعالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً » .

فانظر كيف أخبر الله عن السموات والأرض والجبال بأنهن أبين أن يحملن الأمانة وأنهن أشفقن من حملها ، وعرفن أنها من أصعب الأمور وأشقها ، وأن القيام بحقوقها عسير جداً .

ومع ذلك حملها الإنسان وهو أضعف من السموات والأرض والجبال ، ولم يبال بهذه الصعوبة فكأنه ظلم نفسه بتحمل هذا الأمر الذى يصعب القيام به ، وكأنه جهل قدر الأمانة ، وجهل قدر نفسه حتى أقدم على ذلك الأمر .

وكأن ذلك يشير إلى أن السموات والأرض والجبال ، عرفن ما لم يعرفه الإنسان ، وأنهن أعلم منه وأعدل منه لأنهن لم يظلمن أنفسهن ولم يجهلن مقدارهن ولا مقدار الأمانة ، فتأمل يا من تقول : إنها تسبح بلسان الحال ، واعتبر إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ .

وكذلك قوله تعالى : « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » ، وقوله تعالى : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ

عَلَى جَبَـلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَـةِ اللهِ » .

فهل بعد أن يصف الله الجبال والحجارة بأنها تخشى ربها ، وجه للقول بأنها تسبح بلسان الحال ؟ !

بما تقرر ظهر لنا أن التسبيح الفطرى الذى فطر الله المكونات كلها عليه ثابت بلسان المقال ، ووجب أن لا يلتفت إلى قول من يقول إنه بلسان الحال ، وإنه يحتاج إلى فم ولسان ، وتبين لنا الحق واتضح ، والحمد لله على ذلك .

أما التسبيح التكليفى : فهو أن الإنسان إذا وفقه الله تعالى لذكره ، وغلب عليه ذكر من الأذكار بأن يكون قد التزم ذكر اسمه تعالى (الله) ولا يزال ذلك الذكر بهذا الاسم ، ويسرى فى عوالمه حتى يمتلىء روحه بالذكر ، فإذا زاد الاستغراق فى الاسم . فاضت الروح على الجسم إذا ساعفها الجسم وتحقق بالصفاء الجسمانى كقلة الكلام والمنام والأكل وعدم الإكثار من الاختلاط بالناس والتزام الطهارة الظاهرية ، واجتناب المآكل الغليظة وتجنب ماله رائحة كريهة ، وغير ذلك من رياضة الأجسام ، فإذا أفاضت الروح على الجسم عندما ساعف الروح ظهر فى الجسم اختلاجات كثيرة ، فترى الرجل تختلج والظهر والبطن واليد والرأس وكل أعضاء الجسم ، ويحدث حينذاك ألم فى الأعضاء شديد ، ولا يزال الاختلاج حتى يكون له ضربات شديدة ثم يرتقى ذلك إلى أن يصير أصواتاً وكلاماً

وتسبيحاً ، وهذا التسبيح يكون بالاسم الذى غاب عليه ذكره .

فإذا اشتد حاله نفذ فى العوالم التى يتصل بها حاله ، فيسمع الجمادات والأشجار والحيوانات والجبال والسموات والأرضين مسبحة بتسبيحه الذى يسبح به .

واعلم أن ما وجده من الذكر فى نفسه بالاسم الغالب عليه يقال له تسبيح تكليفى حالى أنفسى ، لأنه أتاه من جهة التكليف الشرعى اختياراً ، وداوم عليه حتى صار حالا له يتلون به .

ولما كان قاصراً على نفسه سمى أنفسياً ، فإذا اتسع حاله واتصل بالعوالم وسبحت مع الذاكر بذكره الغالب عليه سمى ذكراً تكليفياً حالياً آفاقياً لظهوره فى الآفاق الخارجة عن العبد .

وقد لا يذكر العبد ربه بل يكون غافلا معرضاً عن الله ، ولكن الله أراد به خيراً ، وهو سبحانه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

يعطى ويمنع من يشاء بلا سبب ، وقد يكون العبد مع إعراضه عن الله فعل أمراً يحبه الله ورسوله كصدقة أو جبر خاطر مسكين ، أو أشفق على يتيم أو كان باراً بوالديه أو كان يحب السائل ولا ينهره أو كان يغلب عليه رؤية تقصيره ، ويطول بسبب ذلك ندمه أو يكون فيه مشابهة لولى فى جسمه أو روحه أو يرحم عباد الله وخلقه ، ولو كانت هرة أو كان عنده حظ من الرضى أو التوكل أو الثقة بالله .

فإذا كان العبد كذلك أقبل الله عليه ورحمه يوماً ما بأن تنزل

عليه الملائكة بالرحمة والبشرى ، ويمن الله عليه بصفاء جسمه وروحه ويقربه من حضرته ، ويكشف له عن تسبيح الكائنات فيشهدها مسبحة لربها ، فإن غلب عليه ذكر اسم أو محبة ذكر اسم ، وظهر ذلك فى تسبيح الكائنات التى كشف الله له تسبيحها كان تسبيحاً تكليفياً حالياً ، وهو إما نفسى إنْ لم يظهر إلا فى ذاته ، وإما آفاقى إن ظهر فى غيره من العوالم .

وقد يعطف الله على إنسان قلب ولى من أوليائه فيقبل الولى عليه فتسرى روحانية الولى فى عوالم ذلك الإنسان ، ويظهر له تسبيح الكائنات ، فيكون محمولا على حال ذلك الولى ، فإن تخلى عنه حال الولى انقطع سماعه تسبيح الكائنات .

واعلم أنه قد يشبه التسبيح الفطرى بالتسبيح الحالى التكليفى فيظن من يسمع التكليفى الحالى أنه يسمع تسبيح الكائنات الفطرى .

والفرق بين الاثنين : أن التسبيح الفطرى يتنوع بتنوع الكائنات ، فإن تسبيح الغراب غير تسبيح الفرس وتسبيح النبات غير تسبيح الحيوان ، وتسبيح الحيوان غير تسبيح الإنسان الفطرى بل الشجرتان من فصيلة واحدة تسبح كل منهما تسبيحاً خاصاً بها لوجود استعداد فيها غير استعداد الأخرى ، وإن كانتا مشتركتين فى مطلق تسبيح الفصيلة الواحدة .

فإذا منّ الله على عبده بسماع تسبيح الكائنات ، ووجد التسبيح مختلفاً متنوعاً ، وأن كل شىء له تسبيح خاص به ، فذلك هو

التسبيح الفطرى الذى فطر الله الأشياء عليه ، وإن كان التسبيح من الكائنات كلها باسم واحد أو ذكر واحد ، وليعلم أن ذلك تسبيح تكليفى حالى ، وهو إما أن يكون حالا له يسمع به تسبيح الكائنات الحالى أو حالا لولى حمله ذلك الولى على روحانيته حتى أسمعه الله تسبيح الكائنات الحالى .

وهناك فرق آخر دقيق ، وهو أن يكون الشخص أو الولى الذى حمله ، أو الملك الذى حمله على روحانيته له تسابيح كثيرة فيظهر كل تسبيح منها فى نوع من أنواع الكائنات ، فيظن الاختلاف التسبيح ، أنها من التسبيح الفطرى ، وليس الأمر كذلك بل هو تسبيح تكليفى حالى .

فإذا كان الله تعالى قد نور بصيرة العبد ، ورزقه الفرق بين التسبيحين التكليفى والفطرى ، ونظر فى تسابيحه التى يسبح بها ربه تكليفياً ، ووجدها هى التى ظهرت فى أنواع الكائنات ، فقد أدرك ذلك من حيثما غلب عليه هو .

وإلى هنا أراد الله أن يقف القلم عن إتمام هذا الشرح إلى أن يأتى الوقت الذى ينبغى إظهار هذا فيه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، فمن أراد الاقتصار على هذا فلا بأس به وهو حسن ، ومن شرح الله صدره لتكميل هذا الشرح فجزاه الله عنا خيراً ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

مختارات من كتاب

« مرشد المريد »

CamScanner

مصطلحات صوفية

الطريق : هو السبيل الواقع بين بداية ونهاية .

وفى الاصطلاح الصوفى : هو السبيل الموصل إلى مرضاة الله .

الطريقة : لفظ اشتهر فى الأوساط الصوفية بهذه التسمية ، والمراد منه : المنهج الذى يرسمه شيخ الطريقة لمريديه ليلتزموا حدوده

ويتجلى ذلك فى نظام الحضرات ، واختيار أسماء الذكر ، وتحديد الأوراد ، وآداب السير ، وعلاقة المريد بالرائد ، وما إلى ذلك ، مما يدور فى هذا الفلك .

والهدف : الوصول إلى مرضاة الله تعالى .

السلوك : مجاهدة النفس لقوله صلى الله عليه وسلم : « رَجَعْنَا مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ إلى الجِهَادِ الأكْبَرِ » .

من هو الصوفى ؟

من تمسك بتعاليم الشريعة ، فتحققت عبوديته بافتقاره إلى الله تعالى .

والمتصوف : هو المريد السالك إلى الله تعالى على يد مرشد ، يجنبه مواقع الزلل ، ويوجهه إلى أقوم السبل ، ليصل إلى ما ينشده الدين من مكارم الأخلاق ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إنَّمَا بُعِثْتُ

لِاتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ » ، والدين خُلُقٌ ، فمن زاد عليك خلقاً ، زاد عليك ديناً ، وكذلك التصوف خُلُقٌ ، فمن زاد عليك خلقاً ، زاد عليك تصوفاً .

مبادىء التصوف

حدَّدها مولانا الراضى ـ رضى الله عنه ـ بقوله :

حد التصوف : علم بقواعد يعرف بها كيفية تصفية النفوس من الأوصاف المذمومة .

موضوعه : أفعال القلوب على الوجه الأهم والجوارح بالتبعية .

ثمرته : الحصول على السعادة الأبدية والفوز برضاء الله تعالى .

فضله : أعلى العلوم وأشرفها ، لتعلقه بالأعمال الموصلة إلى حضرة الحق تعالى .

نسبته : نسبته إلى باقى العلوم كالثمر بالنسبة إلى الشجر .

الواضع له : هو الله تعالى من حيث الأصل ، والنبى صلى الله عليه وسلم من حيث التفصيل ، والصحابة من حيث الاتباع ، والتابعون من حيث التلقى ، وتابع التابعين من حيث النشر والتدوين ، والمشايخ من حيث الإرشاد .

اسمه : التصوف نسبة إلى لبس الصوف ، أو إلى صفاء القلب .

قال البستى :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا فيه وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صافى فصوفى حتى لُقِّب الصوفى

استمداده : من الكتاب والسنة وأقوال المشايخ العارفين .

أقسام الصوفية أربعة : أصحاب السوابق ، وأصحاب العواقب ، وأصحاب الوقت ، وأصحاب الحق .

(١) أصحاب السوابق : يعتقدون أن الحكم الأزلى لا يتغير باكتساب العبد . (ويقولون) من أقصته السوابق ، لم تدنه الوسائل ومع ذلك فهم يجدون فى القيام بالأوامر واجتناب النواهى غير واثقين بها ولا ملتفتين إليها .

كما قال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه : (لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة والأخرى خارجها) .

ويقول قائلهم :

إن لم يكن لى فى المقدور سابقة فليس ينفع ما قدمت من عمل

(٢) أصحاب العواقب : يعتقدون أن الأمور بأواخرها ، والأعمال بخواتيمها ، والعاقبة مستورة .

ويقول قائلهم :

وسالمتك الليالى فاغتررتَ بها وعند صَفْوِ الليالى يَحْدُثُ الكدر

(٣) أصحاب الوقت : لم يفكروا فى السوابق ولا فى العواقب واشتغلوا بمراعاة الوقت ، وقالوا : العارف ابن وقته ، وليس له ماض ولا مستقبل .

(٤) أصحاب الحق : هم مع صاحب الوقت ، ومالكه ومدبره ، مأخوذون بشهوده عن مشاهدة الأوقات .

قال الشافعى : صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين ، سمعتهم يقولون : (الوقت سيف فإن لم تقطعه قطعك ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق ، شغلتك بالباطل) .

كلمتان فيهما نفع وجمع ، ودليل على علو همة قائلهما .

مبادىء الأخوة فى الله

حدها : العلم بمعرفة كيفية ربط مصلحة شخص بآخر ، لتعاونهما على ما فيه خير الدنيا والآخرة .

موضوعها : الأفعال الصادرة عن كل من المتصاحبين ، من حيث ملاحظة الرابطة الإخائية .

فضلها : علم شريف لاشتماله على التعاون على الخير ، إذ بصاحبه يدرك الإنسان مالا يدركه بنفسه ، قال تعالى : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِ وَالتَّقْوَى » .

نسبتهـا : نسبتها إلى سائر العلوم ، السُّلَّمُ الموصل إلى الثمرة .

ثمرتهـا : التسابق من كل منهما لمجاراة الآخر فى أفعال البر ، وتنبيهه على عيوبه ، حتى يفوز بمقصد واحد ، هو سعادة الدارين .

واضعها : هو الله سبحانه وتعالى من حيث قوله : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » .

اسمهـا : علم الصحبة والإخاء .

استمدادها: من الكتاب والسنة وأفعال الصحابة رضى الله عنهم ، وأقوال المشايخ الذين تأدبوا على يد من فازوا بالأدب الشرعى .

حكم الشرع: سنة فى ذاتها ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم آخى بينه وبين على ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، هذا قبل عقد الصحبة ، وأما بعد العقد فهى واجبة يسأل عنها العبد ويقضى له على أخيه بتضييع حقوق الصحبة .

مسائلهـا : هى التعاليم التى تشتمل عليهـا ، من آيات وأحاديث وأقوال السلف .

الذكر

هو عبودية القلب واللسان ، وحياة النفوس ودواؤها ، يجعل الذاكر مذكوراً لقوله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَئِهِ) . (حديث قدسي)

الدليل من القرآن الكريم

الأمر بالذكر : قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا » .

النهي عن ضده قال تعالى : « وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ » « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » .

الفلاح بالإكثار منه قال تعالى : « وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

مدح أهله وحسن ثوابهم قال تعالى : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ — إلى قوله — وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » .

خسران تاركه قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ

أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

ذكره للذاكرين قال تعالى : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ » .

الذكر أكبر من كل شيء قال تعالى : « اُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ » . والمراد أن الذكر أعظم من نهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، وبذلك أصبح من أفضل الطاعات ، لأن الطاعة هى ذكر الله تعالى .

ختام الحج به قال تعالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا » .

ختام الصلاة به قال تعالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ » .

ختام الجمعة به قال تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

الدليل من السنة

(١) فى المسند مرفوعاً من حديث أبى الدرداء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ ، وَأَرْفَعِهَا فى دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَأَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ » قالوا وما ذاك يارسول الله فقال : « ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

(٢) حديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ حَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ » صحيح مسلم .

(٣) فى صحيح مسلم عن معاوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال : « مَا أَجْلَسَكُمْ » قالوا : جلسنا نذكر الله ، ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومنَّ به علينا ، قال صلى الله عليه وسلم : « آللهُ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَلِكَ » قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك ، قال صلى الله عليه وسلم : « أَمَا إِنِّى لَمْ

أَسْتَخْلِفُكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكِنْ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ » .

(٤) سأل أعرابى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أى الأعمال عملا أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أَنْ تُفَارِقَ الدُّنْيَا وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ » .

(٥) وعن جابر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ ارْتَعُوا فِى رِيَاضِ الْجَنَّةِ » قلنا : وما رياض الجنة ؟ قال : « مَجَالِسُ الذِّكْرِ » .

رفع الصوت فى الذكر

يباح على إطلاقه فى غير المسجد ، وأما فى المسجد فيباح بشروط :

أولا : عند الأحناف :

قرروا أنه أفضل إذا ترتب عليه إيقاظ قلب الذاكر ، وطرد النوم عن عينيه ، وتنشيطه للطاعة . ويكره رفع الصوت بالذكر إن ترتب عليه تهويش على المصلين .

ثانياً : عند الشافعيين :

قالوا : لا كراهة فيه مالم يهوش على مصلّ أو قارىء أو مدرّس.

ثالثاً : عند الحنابلة :

قالوا : يباح إلا إذا ترتب عليه تهويش على المصلين .

كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ص ٢٤٠

الأناشيد فى الذكر

قال المالكية : إنشاد الشعر حسن إن تضمن ثناء على الله تعالى أو على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو حثاً على خير

وقال الشافعية : يجوز إنشاد الشعر إن اشتمل على حكم ومواعظ وغير ذلك مما لا يخالف الشرع .

وقال الحنابلة : الشعر المتعلق بمدح النبى صلى الله عليه وسلم ونحوه مما لا يحرم ولا يكره : يباح إنشاده .

وقال الأحناف : الشعر إن كان مشتملا على مواعظ وحكم ، وذكر نعمة الله تعالى ، وصفة المتقين فهو حسن .

كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ص ٢٤٤ .

التصفيق فى حلقات الذكر

أمر تدعو إليه الضرورة ، وتتطلبه حاجة الذكر وتعدد الذاكرين فالذاكرون لا بد أن يتآلفوا فى وحدة النطق ومقاطع الصوت ، حتى تنتظم أفئدتهم على حالة يرتاح إليها السمع ، وإلا شوش الذاكرون بعضهم على بعض ، وفوتوا على أنفسهم المعنى المقصود من الذكر .

الاهتزاز فى حلقات الذكر

نشوة تدفع الذاكر إلى الاهتزاز ، وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم تمايل لقصيدة كعب بن زهير استحساناً لها ، وتعبيراً عن صادق شعوره لقائلها ، حتى سقطت بردته من على كتفيه الشريفتين.

لا إله إلا الله

نفى وإثبات .

لا إله : نفى ، إلا الله : إثبات .

فالنفى : ينصب على كل ما سوى الله من المعبودات بغير حق .

والإثبات : الاعتراف بوحدانية الله .

قال إمامنا الراضى — قدس الله سره .

لا إله إلا الله على ثلاثة أنواع :

نوع تعطيه المبتدئين : هو لامعبود بحق إلا الله .

ونوع تعطيه المتوسطين : هو لامقصود إلا الله .

ونوع تعطيه المنتهيين : هو لاموجود إلا الله .

النفى على اليمين ، والإثبات على اليسار :

ينفى من القلب اعتقاد التأثير أو الألوهية لغير الله فيلقيها على اليمين ثم يرجع بالإثبات على اليسار فى القلب .

الله

اسم علم على ذات واجبة الوجود .

هو

ضمير شـأن يوصلك إلى الله ويقطعك عن سواه ، ويدلك على الله رأساً من حيث هو ، لا من حيث النسب والإضافات بالقياس إلى عالم الحدوث .

أما الأسماء المشتقة فلا تفيد كمال الاستغراق فى مقام معرفة الحق بمعنى أن العبد إذا ذكر الله باسم من أسمائه المشتقة لم يكن مستغرقاً فى معرفة الله ؛ لأنه إذا قال يا رحمن فحينئذ يتذكر رحمتـه ، فيميل طبعه إلى طلبها فيـكون طالباً للحصة ، وكذلك إذا قال يا كريم ، إما إذا قال ياهو ، فإنه لا يتطلب غيره البتة .

الحى

صاحب الحياة كلها الممدّ جميع الكائنات بها .

القيوم

القائم بذاته ، المقوم لغيره .

فجميع المخلوقات قائمة به بحيث لو تخلى عنها ما كانت شيئاً مذكوراً « هو الحى القيوم » .

نظرة — مدد — شيء لله

تستعمل هـذه الألفاظ حين يطلب المريد من شيخه زيادة نفع ، أو كثرة رعاية ، أو الإفاضة عليه ببعض فيوضاته من أحوال وأسرار وهى وإن أعطت معنى الالتماس ، فهى أدخل منه فى باب طلب الدعاء بإصلاح حاله ، وتنشيط روحه فى ميادين السير إلى الله .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ينحون نحو هذا المعنى حين كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «راعنا يارسول الله» ، ولكن الله عدل بهم إلى القول « انظرنا يارسول الله » حيث يقول تبارك وتعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا » . والآية لاتخرج عن هذه المعانى التى بيناها آنفاً .

وكذلك يجرى فى هذا المعنى كلمة مدد وكلمة شيء لله .

المصافحة

وضع يد المسلم فى يد أخيه ، وقد حث عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ وَسَلَّمَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ وَتَصَافَحَا نَزَلَتْ بَيْنَهُمَا مِائَةُ رَحْمَةٍ لِلْبَادِىءِ تِسْعُونَ ، وَلِلْمُصَافِحِ عَشَرَةٌ » رواه البزار فى مسنده ، والبيهقى فى الشعب .

تقبيل اليد

روى عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قبلنا يد النبى صلى الله عليه وسلم . رواه أبو داود بسند صحيح .

وعن كعب بن مالك قال :

لما نزلت توبتى أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقبلت يده .
رواه أبو بكر بن المقرى فى كتاب الرخصة .

الفقر

قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ » .

الفقر : هو البراءة من الاعتزاز بالنفس ، ومنه جاء لفظ الفقير .

كذلك

تأتى للتثبيت ، إما لخبر مقدم أو مؤخر وهى نقيض كلا ، فهى تنفى وكذلك تثبت لقوله تعالى : « كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ » .

الشريعة — والطريقة — والحقيقة

الشريعة : أحكام ، والطريقة : السير بهذه الأحكام ، والحقيقة : هى الوصول إلى المقصود .

حديث : « الشَّرِيعَةُ أَقْوَالِي وَالطَّرِيقَةُ أَفْعَالِي وَالْحَقِيقَةُ أَحْوَالِي » .

الوحى

هو كلام الله تعالى المنزل على نبى من أنبيائه ، وقد عرفه البعض بقوله : هو عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من الله تعالى بواسطة أو بغير واسطة .

الكتب المنزلة

والكتب المنزلة تختلف طرائق نزولها : فمنها ماينزل جملة واحدة كالتوراة ، ومنها مايجرى على لسان الرسول كالإنجيل ، ومنها ما ينزل نجوماً حسب الحوادث كالقرآن .

الرسول

هو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، وكل رسول بعث على الأربعين سنة إلا عيسى عليه السلام فقد بعث على رأس الثلاثين .

والرسول على ثلاثة مقامات :

مقام ولايته : وهو يتلقى به عن الحق ، ومقام نبوته : وهو الوجه الذى يتلقى به شرعاً يعمل به فى نفسه ، ومقام رسالته : وهو الوجه الذى يتلقى به شرعاً يرشد به الخلق .

النبي

هو من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، وقد يكون النبي نبياً قبل ظهور جسده ، أو بعده كنبوته صلى الله عليه وسلم وآدم بين الروح والجسد . وكعيسى عليه السلام وهو فى المهد ، وكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ، وقد سد باب النبوة والرسالة بخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم .

الولاية

هى القرب من الله تعالى ، ولا يخطر ببال صاحبها فى قربه ما سوى الله ، فلا يخاف شيئاً ولا يحزن بسبب شىء .

وقد دل عليه الكتاب والسنة والأثر والمعقول .

أما القرآن فقوله تعالى : « أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

وقوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ » أى اعتقدوا اعتقاداً صحيحاً مبنياً على الدليل ثم عملوا على وفق ماوردت به الشريعة

أما الأخبار فكثيرة . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا فى اللهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا ، فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ ، وإِنَّهُمْ لَعَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ ، لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ ، وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذا حَزِنَ النَّاسُ » .

الدليل من الأثر : الولى من تولى الله هدايته بالبرهان ، وقام لله بحق العبودية والدعوة إليه .

الدليل عليه من المعقول : الواو واللام والياء فى الاشتقاق معناه القرب ، فولى الشىء هو القريب منه ، ومحال أن يكون القرب من الله بالمكان والجهة ، وإنما القرب هو استغراق القلب فى نور معرفته تعالى ، لا يرى إلا آثار قدرته ، ولا ينطق إلا بالثناء عليه ، ولا يسمع إلا آياته ، ولا يتحرك إلا فى خدمته ، ولا يجتهد إلا فى طاعته ، وبذلك يكون الله وليا له لقوله تعالى : « اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » ولا قرب إلا من الجانبين .

قال إمامنا الراضى — رضى الله عنه :

من شروط الولى أن يكون محفوظاً ، كما أن من شروط النبى أن يكون معصوماً .

من كان للشرع عليه اعتراض ، فهو مغرور مخدوع .

زار أبو يزيد رجلا اشتهر بالولاية ، فتنخم الرجل فى المسجد ، فانصرف عنه أبو يزيد

قال بعضهم : لا يجوز أن الولى يعلم نفسه لأنه دائماً يستشعر الخوف ، وبعضهم قال : يجوز .

الولى لا يرائى ولا ينافق ليس له مع الله قرار . عبد الله فى كل حال

شيخ الطريقة

تعريفه : هو النور الهادى فى الظلمات الغاشية ، والظل الوارف فى الصحراء المحرقة ، من قصده أمن غوائل ذنوبه ، ومن تتلمذ عليه

نجا من آفات عيوبه ، وهو قبل وبعد القائم على مبادىء الشريعة ، الحارس تراث الحقيقة العامل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ على أوضح منهج وأقوم طريق .

عمله : هداية المنحرفين وإصلاح قلوب الضالين ، وتقبيح الرذائل وتزيين الفضائل ، وتقريب العباد من ربهم .

رسالته : رسالة الطبيب من المريض ، فكما أن المريض يحتاج إلى الطبيب ليزيل علة جسمه ، فكذلك الشيخ المريد ، فإنه يتعهده بالرعاية ، حتى يخلع من قلبه فتنة الدنيا وشهواتها ، ويحبب إليه الفضائل وطيباتها .

منزلته : منزلة من قال الله فيهم : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » .

الاستجابة إليه : واجبة لقول الله تعالى : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » ، ولقول رسول الله ﷺ : « هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسٌ » .

قال إمامنا الراضى — رضى الله عنه :

شيخ السلوك له صفات كثيرة ، ومن شرطه أن يكون من أهل المعرفة بالله ، فمن اتصل به ثم أعرض عنه إلى غيره كان أشبه بالمتلاعب وهو أجدر بأن يصرف الشيوخ قلوبهم عنه ، ومن كان كذلك فقد سقط من عين الله ، نعوذ بالله من الطرد والحرمان .

ومن وَفّى بحقوق أستاذه الذى يصح الانتماء إليه ، فتح الله عليه بصيرته ، وبارك له .

وبدء التصوف مداواة القلوب والشيخ طبيب الأرواح والقلوب فمن لم يكن شيخاً يصح الانتماء إليه كان التزام التلميذ له كالتزام المريض لغير طبيب ، ومن كان غير طبيب يضر المريض ، وهذا كله فى سيره فى نفسه وفى المراتب ، فما بالك عند ظهور فجر الحقيقة وتوالى التجليات ، فإن ذلك الشيخ يكون ضرراً أكبر ، وفيه من الخطر مالا يعبر عنه ، وفقنا الله لسلوك طريق أحبابه ، فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

المريد

قال تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ » .

تدل الآية على أن المؤمن إذا أحب الله تعالى واتبع نبيه ﷺ فهو مريد ، وإذا أحبه الله تعالى فهو مراد .

أما قصد المريد وإرادته ، فهو التجرد عن الإرادة ، فإذا فقده صحت له الإرادة ، وعند ترك العادة بالابتعاد عن الغفلة وتجنب داعى الشهوة تصح إرادته فيتخلص من ذلك كله ويتشوق قلبه طالباً الحق ويبتدىء المريد بإسقاط الإرادة وينتهى إلى أن يجد الله بلا إشارة .

والمريد مبتدىء ، والمراد منتـه ، المريد محب والمراد محبوب ، المريد سائر والمراد محمول ، المريد طالب والمراد مطلوب .

أو لا يـكون مريداً إلا إذا كان مراداً أولا ، لقوله تعـالى : « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » يعمل لله لا لغيره ، ومراده الله لا سواه .

من كلام القوم :

تكون مريداً ثم فيك إرادة إذا لم ترد شيئاً فأنت مريد

وقوله : « أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً » . وبذلك جعل العزة له وحده ، ثم أعطاها لغـيره فقال : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » . وبذلك ثبتت الشفاعة بإذنه تعالى للأنبياء والأوليـاء وسائر المؤمنين .

المعجزة

أمر خارق للعادة يظهره الله على يد الأنبياء والمرسلين مبنى على الإعجاز والتحدى ، وتقترن بدعوى النبوة .

الـكرامة : أمر خارق للعـادة ، يظهره الله على يد الولى ، مبنى على الـكرامة والإكرام ، وما جاز أن يكون معجزة لنبى ، جاز أن يكون كرامة لولى ، لا فارق بينهما إلا التحدى .

وقد يقع من الأولياء بقصـد أو بغير قصد أمور خارقة للعادة يجريها الله بسببهم وعلى أيديهم .

والدليل على جوازها : أنها من الأمور الممكنة ، فلا يلزم من جواز وقوعها محال .

ومثالها : قصة السيدة مريم ، وكيف أن الله رزقها من عنده من غير سبب كما جاء به القرآن « وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا » .

ورؤية سيدنا عمر الجيش بنهاوند من أرض العجم ، وهو على المنبر بالمدينة فى شبه الجزيرة العربية ، فقال لأمير الجيش يحذره الكمين : ياسارية الجبل : أى الزم الجبل واجعله وراء ظهرك لكمون العدو بجانبه وسمع سارية كلامه على بعد الشقة فتمكن من الظفر بعدوه .

وقصة آصف بن برخيا — وهو من أتباع سليمان بن داود عليه السلام ، وإحضاره عرش بلقيس من مسافة بعيدة فى طرفة عين ، علماً بأن رسول الله ﷺ أفضل من سليمان بن داود عليه السلام لقوله تعالى : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » . ولا تكون خير أمة إلا إذا كان رسولها خير رسول .

وقصة أصحاب الكهف وإبقاؤهم ثلاثمائة سنة وأزيد نياماً أحياء إكراماً لهم ولم يكونوا أنبياء .

وقصة الخضر مع سيدنا موسى عليه السلام ، وأنه ولى ولا نبى على أرجح الأقوال .

وقوله ﷺ فى حق سيدنا عمر رضى الله عنه : « إِنَّهُ مِنَ المحدَّثِينَ » بفتح الدال ، أى الملهمين .

روى البغوى فى شرح السنة بإسناد عن ابن المنكدر ، أن (سُفَيْنَةَ) مولى رسول الله ﷺ ، أخطأ الجيش بأرض الروم أو أسر ، فانطلق يلتمس الجيش فصادف أسداً فقال : يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من أمرى كذا وكذا . فأقبل الأسد وسار إلى جنبه يدفع عنه الأذى ، ويدله على الطريق ، حتى بلغ الجيش ، ثم رجع الأسد .

وقد أشار صاحب البردة إلى هذه الحادثة بقوله :

وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللهِ نُصْرَتُهُ
إِنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ فِى آجامِهَا تَجُمِ

حديث مسلم : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ » .

الاستغاثة

الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين والأولياء جائزة فى حياتهم وبعد مماتهم ؛ لأن معجزة الأنبياء وكرامة الأولياء لا تنقطع بموتهم ، ونسبتهما إلى الله على الحقيقة ، ونسبتهما إلى غيره على السبب والمجاز

التوسل

قال تعالى : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ » . وقال : « أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ » .

فى الآية الأولى ، أمر عباده المؤمنين بابتغاء الوسيلة ، ثم فسرها فى الآية الأخرى ، ومعناه ينظرون أيهم أقرب إليه تعالى » فيتوسلون به إليه .

قال أهل السنة :

التوسل بالدعاء أو بصاحبه أو بجاهه أو محبته أو ذاته أو شفاعته أو بالطاعات أو الأعمال الصالحة جائز .

وخالف المعتزلة وقالوا : التوسل يكون بالأعمال الصالحة فقط . ولكن لفظ الوسيلة عام يشمل كل هذا ، والتقوى جاءت قبل الوسيلة فى الآية ، ويقتضى ذلك أن تكون الوسيلة بالذوات .

وإذا كان معنى الوسيلة فى الآية هو فعل الطاعات لزم التكرار ، وعلى ذلك يكون معنى الوسيلة غير فعل الأعمال الصالحة وقامت الحجة على صحة التوسل بالنبى ﷺ وبغيره من الأخيار الصالحين .

فيجوز التوسل بالمفضول دون الفاضل ، فإن رسول الله ﷺ

أفضل من عمه العباس بن عبد المطلب الذى استسقى به سيدنا عمر مراراً فى زمن خلافته حيث قال :

اللهم إنا كنا إذا قحطنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون .

وحيث يقول : يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد ، فاقتدوا به واتخذوه وسيلة إلى الله . فبين عمر رضى الله عنه جواز الاستسقاء بالنبى صلى الله عليه وسلم وبغيره ، وإن ذلك لا حرج فيه لقوله تعالى : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » فدلت الآية على جواز التوسل بالذوات ، وأن ذاته الشريفة مانعة من نزول العذاب .

ولا تكون الوسيلة للكفار قطعاً .

وقوله تعالى : « وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » .

والمعنى : لولا دفع الله بالمؤمنين عن الكفار ، وبالطائعين عن العصاة ، لفسدت الأرض ، ووجود الذوات الفاضلة يمنع فساد الأرض وهلاكها .

الشفاعة

أنكرها المعتزلة والخوارج ، وأيدها أهل السنة والكرامية ، وقالوا بالشفاعة .

واحتج المنكرون على ذلك بقوله تعالى : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » وقوله تعالى : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » والآيتان فى حق الكفار ، والمراد بالظالم هو الشرك بالله .

ولا شفاعة لهم قطعاً لقوله تعالى : « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ » .

ولا يجوز الاقتصار على بعض القرآن دون البعض ، ولا على بعض السنن دون البعض كما نص الكتاب والسنة على صحة الشفاعة المذنبين المسلمين دون المشركين فقال تعالى : « لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً » .

والعهد هو قوله : لا إله إلا الله ، فلا يشفع إلا مؤمن لاتخاذه عنده تعالى عهداً بذلك القول .

وجاءت أحاديث صحيحة صريحة فى شفاعته ﷺ لعصاة أمته فقال : « شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي » رواه الترمذى وأبو داود عن أنس ، ورواه ابن ماجة عن جابر .

أما قوله تعالى : « قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً » ، فوردت فى حق الكفار الذين كانوا يعتقدون الأصنام أرباباً ، وأنها شفعاء لهم عنده تعالى لقوله : « وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ » .

والآية الأولى ليست رداً على المسلمين الذين يتشفعون بالأنبياء والصالحين كما دلت الآية على اختصاصه تعالى بالشفاعة ، فلا يملكها أحد إلا بتمليكه ، يعطيها غيره تفضلا منه وإكراماً .

وإنما الضرر طلب الشفاعة ممن لم يملكه الله إياها لقوله تعالى : « أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » فالله هو الولى وحده . ثم جعل الولاية فى غيره لقوله : « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا »

الإيمان

هو التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل بالأركان ومن قال بأن الإيمان هو الإسلام فقد أضاع التفاوت والمقامات ومن قال بأن الإيمان غير الإسلام ، فقد أدخل التضاد بينهما .

قال أهل السنة :

الإيمان والإسلام قرينان لا يفترقان ، والإيمان مقام فى الإسلام كما جاء فى الحديث .

سئل ﷺ : أَىُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟

فَقَالَ : الإِسْلَامُ . فقيل له : وأى الإسلام أفضل؟ قَالَ : الإِيمَانُ

مثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين : شهادة التوحيد غير

الشهادة بالرسول ﷺ ، ولكن ارتبطت كل واحدة منهما بالأخرى فلا إيمان لمن لا إسلام له ، ولا إسلام لمن لا إيمان له .

واشترط الله الأعمال الصالحة لتحقيق الإيمان بالعمل لقوله تعالى « فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ » .

ومن عمل بما أمر به ولم يؤمن بالغيب ، فهو منافق كافر .

ومن آمن بالغيب ثم أنكر ركناً من أركان الشريعة فهو كافر

ومن آمن بالغيب وأهمل ركناً من أركان الدين فهو مسلم عاص

ومن آمن بالغيب وعمل بأحكام الشريعة فهو مؤمن مسلم .

فمثل الإيمان من الأعمال كمثل القلب من الجسم لا ينفك أحدهما عن الآخر .

والإسلام ظاهر الإيمان وهو أعمال الجوارح من المعاملات .

والإيمان هو باطن الإسلام ، وهو أعمال القلوب من النيات كما جاء في الحديث : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » أى لا إيمان إلا بعمل ، ولا عمل إلا بعقد وقصد .

حلاوة القرب(١)

الحلاوة والطلاوة لذة رحيق الشراب الفائض من نور اللطيف

---

(١) أبرع تصوير صوره قلم أستاذنا السيد إبراهيم سلامة رضى الله عنه من معانى هذا الباب .
سيف عشرى

فالحلاوة تأخذك من نفسك وتلقيك فى عالم اللذة والسرور ، وتنفحك وتمنحك مالم يكن عندك ، وترقق بالألطاف قلبك ، وتكشف عنك القناع حتى تشهد مالم تحظ به قبل السماع ، فالحلاوة موسيقى تضرب على نغم أوتار القلوب بأنامل اللطف فى عالم القدس ، فترفعك إلى مستوى جمال محاسن العالم الأسنى ، حتى تريك شمس الحقيقة ساطعة من وراء الأكوان ، وتخرج عن الطبع وتتبرأ من حدوده واعتباراته وتفهم من الفيض إشاراته ، ومن كل عالم لغاته ، ومن كل سير وقفاته ومن كل واقف لفتاته ، ومن كل مشاهد نظراته ، ومن كل قلب تقلباته . الحلاوة تحل العقد ، وتوصل من انقطع ، وتذيقه طعم الخير المعنوية ، فيغيب فيها ، فلا كيف ولا أينية . حلاوة الظاهر للأجسام وآلتها اللسان ، وحلاوة الباطن للأرواح وآلتها القلوب ، وحلاوة الأسرار آلتها الأرواح ، وكل حلاوة آتية من حلاوة ، فالحلاوة العليا تمد الحلاوة الدنيا ، وبين الحلاوتين حلاوات ، تتعدد بحسب المراتب والاعتبارات ، فمن ذاق الحلاوة العليا انصرف عن الحلاوة الدنيا ، ومن ذاق الحلاوة الدنيا ظل فى اشتياق إلى الحلاوة العليا إذا كان ذوقه لم ينحرف عن أصل تركيبه ، ولم يتغير مزاجه عن وضعه الذى جبل عليه فالاستعداد للحلاوة جبلىّ فى الطباع ، ولا ينصرف الإنسان عنها إلا لتغير طرأ من مجاورة من اعتل مزاجه . فالحلاوة فيك تحسها فى فيك ترفعك وترقيك ، وبكأسها تسقيك

وتعرفك وتهديك ، وتثبتك وتنفيك ، فإن امتلأتَ حلاوة رَشَحت حلاوة ، وسَرَت الحلاوة فى كلامك ، وفى يقظتك ومنامك ، وإذا جلست مع قوم عشقوك ، ومن سيل حلاوة التصقوا فيك وأحبوك فلا قبيح مع الحلاوة ، فكل أفعال أهل الحـلاوة حلاوة ، وأهل الحلاوة لا يتكلفون ، ولا يتزينون لأحد ولا يتعبون .

فيأيها الحلو أعطنا قطعة من حلاوتك لعلنا نذوق تلك الحلاوة فنحلو ، وإذا عرفنا لذتها لزمنا أهل الحلاوة فنكون تجاراً لها ونشتهر بها ، وتجار الحلاوة ما أحلاهم ، وعلى القـلوب ما ألطفهم وأشهاهم .

لمـاذا أنا ابن طريق

لقد شاعت هـذه التسمية ، وَأُطْلِقت على طائفـة خاصة فعُرِفوا بالصوفية ، وكان من هؤلاء رجال هم خلاصة الصالحين ، وأئمة العارفين وقدوة الواصلين ، وبلغ عددهم حد الـكثرة التى يتعذر ضبطها ، وخضع لهم أئمة العلماء ، وأكابر الفقهاء ، وأذعن لهم فلاسفة الزمان ، وأقر بفضلهم الخاص والعـام ، واغترف من بحار علومهم أئمة المحققين ، وظهرت لهم خوارق العادات ، وتوالت عليهم النفحات والبركات ، نفعنا الله بهم ، وأذاقنا من شرابهم بمنه وكرمه .

وهؤلاء القوم قد تعددت طرقهم ، واختلفت مشاربهم ، وانتسبت كل طائفة منهم إلى إمام من أئمتهم حتى بالغ بعضهم فقال : لله طرائق

بعدد أنفاس الخلائق ، وهذه الطرق وإن اختلفت ، والمشارب وإن تعددت ، فإنها بحسب الأصل ترمى إلى غرض واحد ، وهو العمل على ترقية البشرية ، وتقوية الروحانية ، والوصول إلى الحضرة العلية .

والطريق تقديم ومحو وإقبال ، أى تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، والإقبال على الله بالهمة لقوله ﷺ (رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ ، أَلاَ وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ) .

والطريق سلوك ومبادىء سامية يسير على منهاجها السالك ، كل ذلك تشمله مكارم الأخلاق التى تنشأ عن نظر صحيح ومبدأ شريف ، ويراد بها الوصول إلى الكمال الإنسانى لا بالتمويه والتقليد . أما السير بالطريق فيجمع خمس خصال ، إن خلا منها المريد فليس هو من الطريق فى شىء وهى : تقوى الله فى السر والعلانية . واتباع السنة فى الأقوال والأفعال ، والإعراض عن الغافلين فى الإقبال والإدبار ، والرضى عن الله فى القليل والكثير ، والرجوع إليه فى السراء والضراء ، وفقنا الله تعالى للتخلق بها .

أما اعتدال الأخلاق : فيؤخذ عن معلم يلقنك إياه عملا ، ولا يقتصر على القول فإذا أدرك الله المريد بلطفه وأراد به خيراً رزقه الخوف من الإقامة على هذه الحال ، والخوف هو سوط الله الذى يقوّم به الشاردين عن بابه ، ومافارق الخوف قلباً إلا خرب ، فيتحلى

بمكارم الأخلاق ويعرف كيف يكون إنساناً منصرفاً عن السفاسف والدنايا ، يعرف الخير فيبادر إليه ، يميز الشر فيبتعد عنه ، يفرق بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، يسمع النصيحة ، ولا يرد الحق على قائله ، ينزه أوقاته عن العبث حتى فى أوقات المزاح ، لا يسب ولا يشتم ، ولا يذكر الأعراض بالسوء ، ولا يعرّض بوصمة تلصق عاراً بأحد ، إذا حدث أحداً اشتمل حديثه على الفضائل وتكميل الأخلاق والرقى فى مدارج الكمال . يحرص على وقته قبل الفوات ، ويحاسب نفسه قبل أن يُحَاسَب ، لا يفعل شيئاً إلا بعد أن يجد له نية صالحة ويكون لله خالصاً ، يصحب الخوف من الله فى أحواله ، ويكون ذا همة علية ، لا ينحط من عزائم الشريعة إلى الرخص ، فمن انحط إلى الرخص كسلا فقد رخص إلا لمن اضطر ، والله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه .

يتحبب إلى قلوب إخوانه ، يجاملهم فى مهماتهم ، ويشاركهم فى نوازلهم ، ويسعى فيما فيه مصالحهم ، ينصح أخاه إذا انحرف أو أذنب ، ويزجره عند الحاجة ، ويلين له إذا اقتضى الحال ذلك حتى يراه قد أقلع عن الهفوة لقوله صلى الله عليه وسلم : (الدِّينُ النَّصِيحَةُ) .

وإذا سلّط الله تعالى عليه من يؤذيه ليختبر صدقه فى دعوى محبته والوقوف ببابه ؛ فلا يضجر ولا يسخط ، يرجو ربه ولا يقنط ومن كان الله همه فقد كفاه ما أهمه ، وقيل : ما كان فى الله تلفه كان

على الله خلقه ، وقال تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ » وبالرجاء والخوف والحب مدار السير إلى الله تعالى لقوله : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً » .

ولولا الرجاء ما تحركت الجوارح بالطاعة ، وإذا قويت المحبة يكون الرجاء ، وكل محب راج خائف بالضرورة . كما أن السائر دائر بين ذنب يرجو غفرانه ، وعيب يرجو إصلاحه ، وعمل صالح يرجو قبوله ، واستقامة يرجو حصولها ودوامها ، وقرب من الله ومنزلة عنده تعالى يرجو الوصول إليها .

أما مقامات الطريق التى يتدرج فيها المريد فهى : اتباع السنة ، قرآن ، فقه ، طاعة ، أدب ، سير ، قيام الليل ، ثبات ، اتهام ، زيارة ، تأليف ، نسبة ، تبرك ، تعشق ، وقار ، ملازمة ، إخاء ، تسليم ، همة ، صدق ، تقديم ، محو ، ترك أهل الغفلة ، بشاشة ، رضى ، قبول النصيحة ، حسن الظن ، خدمة الإخوان ، تحمل ، سلامة الصدر ، الوفاء بالأخوة ، الشفقة على خلق الله ، عدم الانتصار للنفس ، تواضع ، عفو ، حلم ، صفاء ، مواساة ، إيثار ، فتوة ، حفظ العهد ، ذكر ، مذاكرة ، فكر ، محاسبة النفس ، مجاهدة ، إكثار التوبة ، كثرة النوافل ، اعتبار ، قناعة ، زهد ، توكل ، رقة فى القلب ، خوف ، مراقبة ، استغراق ، حفظ الحدود ، يقين ، تقوى ، تخلق .

وقد أتانا النبي ﷺ بالحنيفية البيضاء النقية ، وكان بنا رءوفاً رحيماً ، فلم يدع شيئاً من عبادة أو معاملة أو أخلاق تقرب إلى محبة الله ورسوله إلا بينه ، وأنزل الله عليه قوله تعالى فقال : «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ» وقال : «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» فأدبه ربه أدباً حسناً ، ثم أظهره فقال : «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» .

فاللهم وفقنا لما تحب وترضى ، وارزقنا الخوف منك ، واجعلنا من أهل الرجاء فى فضلك ، ولا تجعلنا من أهل اليأس من رحمتك ، وارزقنا الإخلاص فى أعمالنا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

السكر

هو لذة ونشوة يغيب معها العقل الذى يتم به التمييز ولا يعلم صاحبه مايقول وما يقال ، أما أسبابه فمتعددة ، منها سكر ناتج عن ألم أو خوف أو فرح أو حب .

أما السكر الناتج عن ألم وخوف فقوله تعالى : « وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ » . سكروا من الدهش والخوف وليس من الشراب .

أما السكر الناتج عن شدة الفرح بإدراك المحبوب فيزيل العقل ، وبذلك يختلط الكلام والفعل .

أما السكر الناتج عن الحب والفرح إذا استحكم الحب وقوى ، فقد أسكر صاحبه لقوله صلى الله عليه وسلم : « حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ » .

فإن قلت قد علمت الحب ، فما شراب الحب وما كأس الحب ومن الساقى ، وما الذوق ، وما الشرب ، وما الرى ، وما السكر ، وما الصحو ؟

فأقول : أما شراب الحب : فهو النور الساطع عن جمال المحبوب . وأما كأس الحب : فهو اللطف الموصل هذا الشراب إلى أفواه القلوب . وأما الساقى فهو الله سبحانه العالم بالمقادير ومصالح أحبابه ، فمن

كشف له عن ذلك الجمال وحظى منه بلحظات ، ثم أرخى عليه الحجب فهو الذائق المشتاق ، ومن دام له الكشف أكثر من لحظات فهو الشارب حقاً ، ومن توالى عليه الأمر ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله فذاك هو الرى ، وربما غاب عن المحسّات والمعقولات فلا يدرى ما يقال ولا مايقول فذاك هو السكر ، وإذا رد هؤلاء السكارى إلى الذكر والطاعات فذاك وقت صحوهم واتساع نظرهم ومزيد علمهم ، فهم نجوم العلم وقمر التوحيد يهتدون فى ليلهم وبشموس المعارف يستضيئون فى نهارهم ، « أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

ويقال : السكر فناء ، والصحو بقاء ، والسكر غيبة ، والصحو حضور .

ويقال : السكر غلبـــة ، والصحو تمكن ، والسكر كالنوم والصحو كاليقظة .

ويقال : السكر اتصال ، والصحو انفصال .

ومحبة الله تأخذ قلب من أحب بما يكشف له عن نور جماله ، وقدس كمال جلاله .

وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف ، والأنوار والأسماء والنعوت والأفعال ، والشرب سقيا القلوب والأوصال والعروق من

هذا الشراب حتى يسكر ، ويكون الشرب بالتدريب والتهذيب ليُسقى كل على قدره ، فمنهم من يُسقى بغير واسطة كالأنبياء والرسل ، ومنهم من يُسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء من الأكابر المقربين . ومنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق منه شيئاً ، ومنهم من يسقون من كأس واحدة ، وقد يسقون من كئوس متعددة ، وقد يسقى الواحد منهم بكأس وبكئوس ، وقد تختلف الأشربة على حسب عدد الكئوس وقد يختلف الشراب من كأس واحدة .

فما ظنك بعد بالذوق ، وبعد بالشرب ، وبعد بالرى ، وبعد بالسكر بالمشروب ، ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى ، والكأس معرفة الحق سبحانه ، يُعرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض ، وهو سبحانه الساقى لمن شاء من عباده ، فتارة يشهد الشارب ذلك الكأس صورة ، وتارة يشهدها معنوية ، وتارة علمية .

فالصورة حظ الأبدان والأنفس ، والمعنوية حظ القلوب والعقول والعلمية حظ الأرواح والأسرار .

« ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » .

الطريق علم وعمل وذوق

أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدين الإسلامى الحق لأجل سعادة الخلق ، بالوصول إلى رضا الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، والتمتع بجواره فى الآخرة ، ولا يكون ذلك إلا باتباع ماجاء به ﷺ عن ربه وبما أرشدنا إليه صلى الله عليه وسلم ، فمن وفقه الله تعالى إلى الخير باتباع ماأمر به الدين والانتهاء عمانهى عنه صفا من الأكدار وأشرقت عليه الأنوار ، وفتح الله عين قلبه ، وأزال الغشاوة عنه ، فصار عبداً لله حقاً ، وتوالت عليه النفحات والبركات والأسرار .

والشرع الذى أتى به صلى الله عليه وسلم ، هو أوامر ونواه ، وهذا هو القرآن والحديث ، وهو الشرع الظاهرى لمن نظر فيه بعقله وفهمه وهو ما بأيدى العلماء رضى الله عنهم ، فإذا سار الإنسان إلى ربه بالامتثال للشرع الشريف كان سيره لله تعالى بذلك الشرع هو الطريق فمن انقدح فى قلبه نور ناشىء عن العمل بالشرع ، فذلك النور هو الباطن ، وعلم الباطن هو الذى أفاضه الله على قلوب أهل السير إلى الله تعالى .

والعامل السائر يحتاج فى الطريق إلى مرشد عارف بطريق السير ، يعلمه كيف يكون العمل ويرشده إلى مالا يعرفه ، والطريق ليس تواكلا

وضعفاً كما يتوهم المعتقدون ، وإنما الطريق كما قال إمامنا الراضى رضى الله عنه : (اجتماع واستماع واتباع وانتفاع ، لا طريق انقطاع وعزلة وعدم اجتماع وتواكل) . ولا يلزم أن يكون الشيخ متبحراً بأحكام الشرع ، فإنه قد يكون كذلك ، ولكنه لم يسر فى طريق الله ، ولم يتجل له شىء من سر الحق ، ولم يعرف ما يصادف التلميذ فى المواطن والمنازل ، ولا يقدر أن يفرق بين نور الرحمن ، ولا الأنوار التى يشكلها الشيطان ، ولا يعرف العوامل التى يمر بها المريد فى حال سيره ، فلم تنفتح عين بصيرته ، ولم ير ماوراء هذا العالم ، وهو لم يزل محجوباً محصوراً فى دائرة عالم الملك .

وإذن لا يصلح ذلك الشيخ ، وإن كان متبحراً فى علم الظاهر أن يكون مرشداً للمريد ، اللهم إلا إذا قيل إنه مرشد فى دائرة الظاهر فى هذا العالم ، فيعلم المريد الأحكام الشرعية فى وضوئه وصلاته وصيامه وحجه وغير ذلك من أحكام الفقه وغيره ، وليس له ذوق فى علوم الباطن ولا معرفة بها .

ومن ادعى أنه ليس هناك إلا علم الشرع فذلك حق . ولكن ألا يدرى أن الشرع أحكام أمرنا بها الشارع ، فإذا عملنا بها أثمرت فى القلوب ، وظهرت لها علامات لقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ زَهِدَ فِي الدنيا أَرْبَعِينَ صَبَاحاً تَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ

عَلَى لِسَانِهِ » . وقوله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا وَجَدْتُمُ الرَّجُلَ وَقَدْ أُوتِيَ صَمْتاً وَزُهْداً فِي الدُّنْيَا فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّى الْحِكْمَةَ » .

وفى قصة الخضر مع موسى عليه السلام تجد أن الخضر أتى بأشياء أنكرها عليه موسى عليه السلام ، فلما بينها له فى آخر الأمر وقال : « وما فعلته عن أمرى » اتضح حكم الباطن وعرف موسى عليه السلام حكمة الأمور التى فعلها الخضر ، ولذلك قال ﷺ : رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى لَوْ سَكَتَ لَتَعَلَّمْنَا » .

وفى هذا دليل قاطع على أن هناك أحكاماً باطنية يتعلمها العبد من ربه من غير واسطة ، وذلك هو العلم الصوفى المقدس الخالى عن تحكمات العقول والبحث فى مذاهب أهل الجدل .

خاتمـــة

أكثر الأحباب وألحوا فى إعادة طبع كتاب « مرشد المريد » من تأليف الشيخ رضى الله عنه .

وبينما هم يطالبون ويكثرون فى الطلب ، ويلحون ويغالون فى الالحاح إذ أشرق عليهم كوكب جديد يحيى موات القلوب ، وينبت فيها ثمار المعرفة ذلك هو كتاب « لمحات حامدية » ثانى لثنين ، وواحد نيرين ، وفيض من فيوضات الشيخ وملاحظ قلمه .

أجل : فقد رأى الشيخ ـ رضى الله عنه ـ تعذر طبع الكتابين فى آن واحد لأنه عبء على الأحباب كبير وطاقة مالية ربما لا يتحملها جهدهم إلا بشىء فوق مقدورهم « وهو الرفيق بهم والشفيق عليهم » فأمر أبره الله وأكرمه ـ بأن ينقل من كتاب « المرشد » فقرات اختارها وأجزاء عينها إلى كتاب اللمحات لتكون امتداداً له .

وإننا إذ نقيه ونفاخر بمقتنيات أستاذنا الفاضل سيدى إبراهيم سلامة فى كتابيه كليهما ، وفى غيرهما ، فإننا لنتطلع فى شوق ولهفة إلى ما يفتحنا به فى قابل أيامه من الكثير الطيب ، والغالى الممتع ، وما يجود به قلمه ، ويتسع له فكره ، ويمتلىء به قلبه من نور وإشراق .

وبالله التوفيق .

الفقير

سيف النصر محمد عشرى

الحامدى

فهرس

الموضوع	صحيفة
مقدمة للأستاذ سيف النصر محمد عشرى	٣
مقدمة للكاتب الكبير الأستاذ عبد المنعم الصاوى	٨
إن عبادى ليس لك عليهم سلطان	١٩
تؤتى الملك من تشاء	٤٧
يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل	٧٧
الله أحد « من كتاب مرشد المريد »	٩٥
الإسراء	١١٢
سبحان ربك رب العزة عما يصفون	١١٥
مختارات من كتاب « مرشد المريد »	١٥١

رقم الايداع ٤١٥٦ سنة ١٩٧١

مطبعة الفجالة الجديدة

استدراك

صفحه	سطر	الخطأ	الصواب
١٠	١٧	لمدى	مدى
١١	١٣	وتفاولته	تفاولته
١٨	٤	رْشد	يُرْشِدَ
٢٠	٥	ذلك	بذلك
٢٠	١٩	مُنَزَّهٌ	مُنَزَّهٌ
٢٣	١	بحظ	بحفظ
٢٦	١٧	يأمُرُ	يَأْمُرُ
٣٤	١٤	وأستغفر	وأستغفر
٣٧	١٢	لله	الله
٣٩	١	مجيء	مَجيء
٤٠	٩	الصلام	الصلاة
٤٢	٤	عزيرا	عزيزاً
٤٥	١٦	وَعُقِلَتْ	وَعُلِقَتْ
٤٦	٧	ولله	فلله
٤٧	٣	تشاء	تشاء
٤٧	٤	تشاء	تشاء

صفحه	سطر	الخطأ	الصواب
٥٦	١٣	وقال	وقال
٥٦	١٣	فبه	فيه
٥٨	١٦	الدّن	الدّين
٥٩	١٢	المماصى	المعاصى
٦٠	٨	ذا	ذات
٦٦	١	التمير	التمييز
٧٦	٤	صحب	صاحب
٨٠	١	التشع	التشعع
٨٣	١٩	تعلى	تعالى
٨٥	١٢	الامثّالَ	الأمثالَ
٨٦	٥	على	على الله
١٠١	٢	الحد	الحق
١٠٣	١	أكبرُ	أكبرُ
١٠٣	٤	بلى	يلى
١٠٦	٩	يقتصى	يقتضى
١٠٧	١٠	فإك	فإياك
١١٠	١٥	الإراردة	الإرادة

صفحه	سطر	الخطأ	الصواب
١٢٧	١٥	تحد	تجد
١٣٧	١٤	لله	الله
١٣٨	١١	الجادات	الجمادات
١٤١	١	وفل	وقال
١٤٢	١	لانبغى	لا ينبغى
١٤٣	٣	كا	كلما
١٤٣	٨	يحِل	يجعل
١٤٣	١٢	ررح	روح
١٤٧	٥	المقام	المقال
١٤٨	٧	صارا	صار
١٥٤	١٢	عملى	عمل
١٥٥	٨	إن	إن لم
١٥٥	١٨	والتقى	والتقوى
١٥٧	٣	ذكر	ذكرنى
١٥٧	٩	ولمسلمات	والمسلمات
١٥٨	٢	هم	هم
١٥٨	٣	فاذكرو	فاذكرونى

صفحه	سطر	الخطأ	الصواب
١٥٨	١٠	فاذ كوا	فاذ كروا
١٥٩	٤	فتصردا	فتضربوا
١٦٤	١٧	ا يد	اليد
١٦٥	٥	إ	إلى
١٦٦	١	ا كتب	الكتب
١٦٩	١٣	ا	لا
١٧٠	٨	فى كتاب	فى حى كتاب
١٧٤	١	ا توسل	التوسل
١٧٦	٢	وقو	وقوله
١٧٦	٥	تَسْتَغْفَرْ	تَسْتَغْفِرْ
١٨٠	٥	يُتعبون	يتعبون
١٨٤	٤	يُحْبِبْكُم	يُحْبِبْكُمُ